ليلة النهر
علي أحمد باكثير

مطبوعات مكتبة مصر

ليلة النهر

علي أحمد باكثير

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

(قرآن كريم)

مقدمة

في وسعك اليوم أيها القارىء الكريم أن تشهد فى هذا الكتاب ما يشوقك من حياة الموسيقار المصرى العظيم المرحوم الأستاذ فؤاد حلمى .

وقد استقيت حوادث هذه القصة وأخبارها من كل من كانت له صلة قريبة أو بعيدة بصاحب السيرة ، غير أن معظمها تلقيته عن صديقه الحميم الأستاذ مراد السعيد الذى تفضل فأعارنى مذكراته عن تلميذه الكبير ولم يضن على بشيء أردت الاطلاع عليه من شؤونه وأحواله إلا ما يراه من قبيل السر الذى لا يذاع .

وقد وجدته — حفظه الله — منهمكا فى إعداد الكتب التى ينوى إخراجها عن الفقيد العظيم يجمع فى أحدها جميع نوتاته الموسيقية ويجمع فى ثانيها قصائده الشعرية وخصص الثالث لدراسة حياته العاطفية والظواهر النفسية التى انبثقت عنها وتفسيرها على ضوء علم النفس الحديث .

هذا إلى بحثه العظيم الذى اشتغل به من قديم لإحياء الموسيقى العربية وحل رموزها وضبطها على نحو ما تضبط به الموسيقى الحديثة .

فسح الله له فى أجله حتى ينجز آثاره العظيمة ويبلغ من خدمة الموسيقى العربية المصرية ما يريد .

المؤلف

١

بقى مراد السعيد يغالب غضبه ويكظم غيظه وهو يستمع إلى زائره الشيخ عبد الله البرقاوى الذى اندفع يوجه إليه قارص الكلم ومر العتاب ، متهماً إياه بأنه هو الذى أفسد ابن أخته الشاب فؤاد حلمى وصرفه عن الاهتمام بدروسه بما يشغله به من الغناء والموسيقى حتى رسب فى الدور الأول والدور الثانى من امتحان السنة الرابعة ولم يرسب قبل ذلك فى امتحان قط .

وأخذ مراد السعيد يحاول أن يسكن غضب زائره باللطف والحسنى إكراماً لخاطر صديقه الشاب فؤاد حلمى ، ولكن زائره لا يزداد إلا ثورة واحتداماً حتى ضاق صدره وعجز عن احتمال ما سمعه من التأنيب المر لغير ذنب جناه إلا أنه شمل ذلك الشاب برعايته وتطوع بتعليمه وإرشاده وتشجيعه حين آنس فيه تلك الهبة الإلهية السامية ، فصاح به فى غضب :

ــ كفى يا شيخ عبد الله . لا آذن لك أن تهاجمنى بأكثر مما قلت .

ــ إنك أفسدت ابن أختى وقضيت على مستقبله فلا حاجة بى إلى إذن منك لأؤنبك على ما فعلت .

ــ أى إفساد يا رجل ؟ أيكون هذا جزائى على ما أحسنت إليه وبررت به ؟ وكيف تقول إننى أقضى على مستقبله وأنا أوجهه نحو مستقبل باهر ينتظره ؟

ـــ إنك تسخر منى لا ريب وإلا فكيف تقول لى هذا وأنت تراه يسقط فى الامتحان مرتين ؟

ـــ لا يحزننك هذا فلا قيمة لنجاحه فى الامتحان الذى تذكره . إنك تعده لشىء وفطرته قد أعدته لشىء آخر . ولا فائدة فى مغالبة الفطرة .

ـــ إذن فإنك تشجعه على الانصراف عن دروسه ثم تنكر بعد ذلك أنك أفسدته .

ـــ كلا والله ما شجعته على الانصراف عن دروسه التى تذكرها وإنما شجعته على تنمية الموهبة الموسيقية فيه وهذا كل ما يعنينى منه .

ـــ أنا لا أرضى لابن أختى أن يكون مغنيا .

ـــ فامنعه من ذلك إن شئت .

ـــ لا أستطيع أن أمنعه وأنت تغريه وتشجعه .

ـــ ماذا تريد منى أن أصنع ؟

ـــ امنعه عن المجىء إليك . اطرده إن جاءك .

ـــ إنه لم يسىء إلىّ فأطرده من بيتى . وليس من عادتى أن أطرد زائرا من بيتى إلا إذا أساء أدبه معى !

لم يفت الشيخ عبد الله البرقاوى تعرض مراد السعيد فى جملته الأخيرة فنهض عن مجلسه محتدم الغيظ ، وتوجه نحو الباب فى حركة عصبية دون أن يستأذن صاحب البيت فى الانصراف أو يسلم عليه .. فلم يكترث له مراد ولم يتحرك من مجلسه وإنما شيعه بابتسامة تحوى كثيرا من السخرية ولا تخلو مع ذلك من العطف والرثاء .

أدار مراد السعيد فكره على أثر انصراف عبد الله البرقاوى فيما جرى

بينهما من الحوار العنيف ، وأخذ يسائل نفسه بعد سكوت الغضب عنه هل كان ملوما فى سلوكه نحو زائره الذى خرج غاضبا من عنده ، وهل كان عليه أن يحتمل من تعنيفه أكثر مما احتمل ، وماذا يكون مصير صديقه الشاب فؤاد حلمى وقد أقسم خاله لينقطعن منذ الآن عن مساعدته في القيام بنفقاته المدرسية ؟

لم يستطع مراد السعيد أن يستريح إلى جواب قاطع للسؤال الذى دار فى خلده ، وساوره شيء من القلق والشعور بالذنب يخشى أن يكون قد أساء إلى هذا الشاب من حيث ظن أنه أحسن إليه ، وأن يكون قد صرفه عن خير مضمون النفع أراده له خاله الذى رباه وأحسن تربيته إلى خير مشكوك فى نفعه يوجهه هو إليه للموهبة الموسيقية التى توسمها فيه . وهب أن توجيهه هو أفضل وأنفع لفؤاد من توجيه خاله : أفليس لهذا الخال أن يدعى أنه أحق بابن أخته وأجدر برعاية مصلحته منه ؟ بلى إن له لهذا الحق ولن يجد مراد السعيد فى سواد الناس من يرى معه أن مهنة المغنى أو الموسيقار أفضل وأشرف فى عيون المجتمع من مهنة الطبيب ، ويابون ما بين درب مألوف قد طرقته الأقدام فجعلته واضح الأعلام مأمون السير ، ودرب متشعب المسالك مطموس الصوى تكتنفه المخاطر وتجتازه الآمال وهى ظنون !

٢

وكان هذا الخال بارا بابن أخته يحبه ويعزه ويقوم منه مقام الوالد منذ توفى والد فؤاد وهو صغير ولم يترك له ولأمه إلا صبابة من الثراء العريض الذى ورثه عن أبيه التاجر فبدده في المضاربات المالية . وقد أحسن خاله الوصاية عليه واشترى بالمال الذى تركه أبوه قطعة من الأرض يعيش على ريعها فؤاد وأمه عيش الكفاف . أما نفقات تعليمه فى المدرسة الأولية ثم الابتدائية ثم الثانوية فقد تكفل هو بها من ماله الخاص وكان يدفعها عن طيب نفس وقد شجعه على ذلك ما رأى من ذكاء فؤاد وتقدمه فى مختلف مراحل الدراسة ، فهو يأمل من ورائه خيرا لأخته الأرملة التى يعطف عليها أشد العطف لاعتقاده أنها امرأة سيئة الحظ ، فقد تزوجت وارثا غنيا عاشت معه في سعة ورفاهية برهة من الزمن ، ولكنه ما لبث أن مال إلي الإسراف في آخر عهده وأغرم بالمضاربات وحفلات السباق وما إليها حتى أتى على كل ما خلفه أبوه له إلا قليلا استطاعت هى أن تحتفظ به من أيام العز السالفة . وكان أولادها يموتون في الطفولة الباكرة فما تكاد تهنأ يولد من ذكر أو أنثى حتى يحتضر قبل أن تفطمه أو بعد ذلك بقليل .

وكان فؤاد أول من سلم لها منهم ، ولكنه كان آخرهم أيضا . لأن والده مات ولما يزل فؤاد على ثدى أمه . وقد أبدى حلمى عبد العزيز في مرضه الأخير تعلقا شديدا بابنه الرضيع على غير مألوف عادته ، كأنما خشى أن يفارق هذا العالم دون أن يترك خلفه عقبا يحمل اسمه

ويحيى ذكراه . ولعله كان ضعيف الأمل فى أن يسلم فؤاد من مغاضرة الموت له فى الطفولة ، كما عصف بأولاده الذين سبقوه . وهكذا نام نومته الأخيرة وهو بين الرجاء واليأس لا يدرى مصير هذه الوديعة التى تركها بين يدى زوجه الحنون !

هذا الشعور القوى بأنها سيئة الحظ ضاعف فى قلب عبد الله الرقاوى العطف على أخته فتولاها وابنها بالرعاية البالغة . ولم يأل جهدا فى توفير أسباب الراحة لهما بقدر ما تسمح له طاقته المالية . وحرصا على سعادة أخته لم يشأ أن يضمها وابنها إلى بيته فى حى السيدة زينب حتى لا تختلف مع زوجته كما يكون فى الغالب بين زوج الرجل وأخته إذا ضمهما بيت واحد . بل استأجر لها شقة صغيرة فى حى المنيل حتى يبعد بها عن حى الحلمية الذى عاشت به مع زوجها المرحوم فى قصره — كان — الواسع هناك لئلا تهيجها ذكريات النعمة الغابرة . وكان هو يتعهدها بالزيارة ويقضى لها شئونها وحوائجها ولا يدعها تحتاج إلى أحد . وسرعان ما أنست زاهية إلى هذا الحى الجديد وتعرفت إلى جاراتها من أهله وانعقدت أواصر المودة بينها وبين كثير من الأسر التى تقطن فيه .

٣

نشأ فؤاد منذ عقل نفسه فى ذلك الحى الهادىء الذى يجمع بين البساطة والجمال ؛ أما البساطة فلقلة المبانى الفخمة القائمة فيه إذ ذاك . إن كانت ثم إلا دور متواضعة بعضها حديث البناء ، وبعضها قديم جدا تتخللها خرائب مهجورة ، وأطلال متهدمة ، يدل ما بقي من جدرانها

الهائلة على بعض ما لهذا الحي فى العهود الماضية من عز وعظمة لا يعرف الناس عنهما إلا قليلا . وليس وراء هذه الدور القليلة إلا المزارع الممتدة على الشاطئين وبعض البساتين . وأما الجمال فلما حبت الطبيعة هذا الحي من اللطف والحسن فهو شريط ممتد فى جزيرة الروضة يكتنفه النيل من جانبيه ، كأنما أضجعه النهر على حضنه ، ووضع يمينه عليه يمسحه ويهدهده ! وناهيك ببقعة يحتفى بها النيل هذا الاحتفاء ، ويعزها هذا الإعزاز .

كان فؤاد يلعب فى صباه مع لداته من أطفال الحي على هذا الشاطىء أو ذاك ، ويتبارى معهم فى الجرى على رمله النظيف الطاهر إذا انحسر عنه الماء ، أو يخط عليه بأصبعه صورا وتهاويل يوحيها إليه خياله النشيط . وكان لا يجد الصفاء والطلاقة إلا على الشاطىء ينظر إلى أمواجه المتكسرة ، وقد فضضها الضحى أو ذهبها الأصيل ، وإلى السفن والبواخر التى تجرى على النهر مصعدة إلى الجنوب أو منحدرة إلى الشمال حيث لا يدرى الطفل الصغير من أين تجىء ولا إلى أين تروح . وطالما حدق بعينيه البريئتين فى الأشجار الباسقة تتخللها المبانى البديعة السامقة القائمة على الضفة الغربية فيخيل إليه أنها مدينة من مدائن الأحلام ، وأنها بعيدة جدا لا يمكن لطفل مثله الوصول إليها . وطالما رنا بإعجاب وشوق إلى القوارب وهى تعبر بالناس من الضفة إلى الضفة تهزها المجاديف أو تتسلل بها الشرع البيض كأنها الحمائم تنطلق فى خفة ورشاقة فويق الماء !

وكان يقع قريبا من منزل فؤاد بستان واسع يقال له « بستان المفتى » قد نمت فيه أنواع الأشجار المختلفة واشتجرت جذوعها وأفنانها لإهمال مالكه الغنى له ، وعدم عنايته بتنظيمه وتشذيبه ، فكان

أشبه بالغابة منه بالبستان . وقد وجدت الطيور فى هذه الغابة مرتعا آمنا فتكاثرت فيه ، فهى تعج بأفانين من الطير قد تنوعت أحجامها وهيآتها وألوانها وأصواتها . وكان فؤاد مغرما بدخول هذه الحديقة يتجول فى أكنافها ويجوس خلال أشجارها . وقد يجلس تحت ظل أيكة من أيكها أو يفترش العشب أو يستلقى عليه ويظل كذلك ساكنا يتابع بطرفه أسراب الطير وهى تنتقل من أيكة إلى أيكة ، ويصغى إليها وهى تغرد ، أو تهدر ، أو تشقشق فتأتلف من أصواتها المختلفة جوقة متسقة النغم . وقد تزعجه بين الحين والحين ، ورقة تسقط على رأسه ، أو نحلة تحوم حوله وتتدانى منه فيتوقاها ويشيح عنها بوجهه يخشى أن تلسعه ، حتى إذا ابتعد طنينها عنه أحس بلذة النجاة من الخطر المهدد فعاد إلى سكونه وإصغائه من جديد .

وكان فى أول عهده بالتردد على هذا البستان يتحاشى أن يراه البستانى خشية أن يطرده أو يضربه بعصاه ، كما فعل ذات يوم إذ دخل فؤاد فى ثلة من أطفال الحى فأخذوا يلعبون فى الجنينة ، ويرمون الطيور والثمار بالحجارة حتى شط أحدهم فوقعت رميته على نافذة من نوافذ قصر المفتى القائم فى وسط البستان فحطم زجاجها ، فانطلقوا هاربين ، وجرى خلفهم البستانى وهو يصيح بأعلى صوته يسبهم ويلعنهم وبيده عصاه الغليظة حتى خرجوا من باب الحديقة وهو يتوعدهم لئن عادوا إلى دخولها ليشدخن رؤوسهم بعصاه ، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن رأى هدوء فؤاد وقلة أذاه من دون الأطفال الآخرين ، فكان يتغاضى عنه إذا لمحه فى الحديقة ، بل صار بعد ذلك يألفه ويداعبه بالحديث ، وكثيرا ما قطف له عقودا من العنب أو جمع له حفنة من ثمر التوت أو الجميز أو قطع له عددا من الخيار أو القوطة



لقد كان ــ فوق أدبه وهدوئه ــ خفيف

الظل ، عذب الحديث ذكى الملامح

فيتقبله الطفل الوديع بالشكر تنطق به عيناه اللامعتان ، ولا غرو فى تعلق العم سالم البستانى بهذا الصبى العجيب . فقد كان — فوق أدبه وهدوئه — خفيف الظل ، عذب الحديث ، ذكى الملامح ، وكانت نظراته التى تجمع بين سذاجة الصغار ووقار الكبار ، تحمل من أمامه على أن يحبه ويحترمه ، وأن يعامل فيه الطفل والرجل معا . وكان العم سالم يشعر ببصيرة الرجل العامى أن سيكون لهذا الصبى اليتيم شأن فى يوم من الأيام .

٤

ولما بلغ فؤاد السادسة من عمره أدخله خاله المدرسة الأولية بالحى فسرعان ما لفت أنظار معلميه ومعلماته ذكاؤه النادر فكانوا جميعا يخصونه بالحب والإعزاز ، بيد أن إعجاب مدرسة الأناشيد به قد فاق إعجاب غيرها ، فقد راعها أن لهذا الصبى أذنا موسيقية عجيبة تلقط اللحن لفظا أول ما تسمعه ، وأن له صوتا حلو الجرس قوى النبرات ، جياش الرنين فلا يكاد ينشد مع زملائه فى الفصل حتى يعلو صوته على أصواتهم ويمتاز عنها برخامته وحنانه ، فإذ أصواتهم أوتار ناشزة فوضى تخفت شيئاً فشيئا ، وإذا صوته هو الوتر الوحيد المنغوم يغالبها جميعا حتى يغلبها !

وكان فؤاد يشعر بالزهو لهذه الميزة الصارخة التى اختص بها دون زملائه وزميلاته ، ويسره أن يسمع الثناء من مدرسته على هذه الإجادة التى لا يقصد إليها قصدا ، ولم يبذل فيها أى جهد ، ولكنه كان يغلبه

الحياء ، ويمنعه أن يبدى من هذا الزهو ما يثير الكراهية والحسد فى نفوس غيره من تلاميذ الفصل . إلا أنه كان على ما به من التواضع الذى يخفف من حدة الغيرة فى تلك النفوس الصغيرة الميالة إلى الاستعلاء والثناء يتضايق كثيرا من سماع أصواتهم النافرة ولا يطيق الصبر عليها ، فربما بدأ معهم فى النشيد ثم انقطع فجأة عن متابعتها وتركهم وحدهم ينشدون ، فلا تلبث المدرسة أن تدرك ذلك فتشير إليهم أن قفوا ، وتسأله متلطفة ما باله انقطع عن النشيد فيرتبك الصبى الممتاز ويحمر وجهه خجلا ، ولا يحير جوابا ، ولكن عينيه الساجيتين تنطقان بالجواب الصريح ، فلا يعسر على مدرسته الذكية أن تفهمه فتنفرج شفتاها عن ابتسامة غضيضة يحار فى فهمها أولئك الأطفال الصغار ، ولكنها لا تشك أن واحدا منهم قد استجاب لها وفهم ما تدل عليه .

أى مخلوق حساس هذا المخلوق الصغير ! لقد فهمت أن الصبى يعتز بصوته الجميل ويربأ به أن يرتفع فى غمار تلك الأصوات الناشزة ، ولكنه كان أنبل شعورا وأكرم إحساسا من أن يبوح بهذه الحقيقة أمام زملائه وزميلاته . فآثر أن يحتمل لوم معلمته على أن ينهض بحجته لدفعه . فرأت أن تجاريه فى شعوره هذا وتفيد من ميزته أيضا فى العمل المنوط بها . فأمرته أن يعيد النشيد بعدها وحده على أن يقوله الآخرون فى إثره ويجتهدوا فى محاكاته . وقد تكللت خطتها هذه بالنجاح الكبير . فالتزمتها فى كل نشيد جديد تحاول تلقينه لأطفالها ، فكانت توقفه بجانبها ليردد معها اللحن حتى يتقنه الآخرون . ويرجع نجاح هذه الخطة إلى أن صوته الجميل كان يسحر ألبابهم ويملك عليهم قلوبهم ، فكانوا يرتاحون لهذا الدرس وينشطون له ويجتهدون فى

محاكاته .

وقد أتاح له وقوفه أمام تلاميذ الفصل أن يرى تأثير صوته فيهم ويرقب ما يرتسم على وجوههم من المعانى المختلفة ، فهذا ينطق بالإعجاب الشديد فى محياه ، وهذا تجمجم الغيرة فى وجهه ، وذاك يتجلى على شفتيه وذقنه التصميم على النجاح فى محاكاته ، وتلك سارحة العينين تسارقه النظر فى إعجاب وحذر . وكانت معركة تدور بين الغيرة والإعجاب أيهما يمتلك تلك القلوب الصغيرة ، فكان معظم قلوب الذكور من نصيب الأولى ، وكان من نصيب الثانى كل قلوب الإناث ، ولكن واحدة منهـن كانت كأنما تقود هذا الفريق المعجب وتحمل رايته ، وهى طفلة سمراء دعجاء العينين طويلة أهدابها . ليست رائعة الجمال إذا قيس وجهها بمقاييسه الاصطلاحية ، ولكن لوجهها طابعا خاصا من الملاحة المستغربة هو عنوان فتنتها ، إذا رأيته مرة صعب عليك أن تنساه وسهل عليك أن تتبينه وتميزه من بين مئات الوجوه . وقوام هذه الملاحة اجتماع نقيضين فيها : ثغر بسام وجبين عابس ! تنظر إلى جبينها وما بين عينيها فترى عبوسا رقيقا ناعما كأنه الألم العبقرى اللذيذ الذى يشعر به الفنان فيسعد به إذ يستمد منه وحيه وإلهامه ، ويسيل طرفك إلى فمها فترى ابتسامة حائرة كأنها فراشة تتحرق شوقا إلى زهرة قد حيل بينها وبين ارتشاف رحيقها فهى حائمة حولها لا تفارقها ، وهذه الابتسامة الدائمة تشب شفتيها الحمراوين وتحفظهما غضتين بليلتين كأنما نزعتا ساعتهما من ثدى أمها !

وليست هذه الطفلة غريبة على فؤاد فهى إحسان ضياء الدين : بيتها يجاور بيته ، وأمها صديقة أمه طالما زارها فى بيتها مع والدته وزارته فى

بيته مع والدتها وطالما لعبا فى الشارع وحدهما أو مع لداته ولداتها ، وربما أغراها فرافقته إلى الشاطىء على حذر من أمها التى تخشى عليها الغرق ، فإذا علمت أمها بذهابها هناك عاقبتها وأوجعتها ضربا وشكت فؤادا إلى أمه فحل به نصيبه من العقاب .

٥

شاء القدر أن تكون إحسان يتيمة الأب مثل فؤاد ، وكان أبوها الأستاذ ناصر على ضياء الدين مدرسا للغة العربية فى المدارس الثانوية ، فقد زوجته الأولى فتعزب دهرا طويلا ، ثم تزوج بنت عمه الأرملة سميرة فرزق منها هذه البنت التى جاءته على كبر ، فأحبها حبا شديدا وتعلق بها قلبه ، ولكنه لم يمتع بها طويلا إذ فارق الحياة وهى بعد فى المهد ولم يترك لها ولأمها شيئا يذكر . ولم تستطع سميرة بعد موت زوجها أن تعيش مع طفلتها فى بيت مستقل فعادت إلى بيت أخيها محمود عمر ضياء الدين حيث كانت تقيم بعد أن مات عنها زوجها الأول وقبل أن يتزوجها ابن عمها والد إحسان .

وخال إحسان هذا موظف فى وزارة المالية يتقاضى راتبا حسنا ، وقد قضى زهرة شبابه عزبا ولم يتزوج إلا بعد ما جاوز الأربعين وهو بدين الجسم كبير البطن شرس الطباع ، لم يلن الزواج من شراسته إلا قليلا . وقد تزوج فتاة صغيرة السن بالنسبة إلى سنه فلم يكن بينه وبينها انسجام ، وهو يعز أخته سميرة ويحترمها ويعتمد عليها فى شؤون البيت ، ولكن زوجته الشابة كانت تحاول جهدها إفساد ما بينه وبين

أخته . وكانت سميرة تلقى عنتا كبيرا من هذه الزوجة الرعناء إلا أنها كانت تصبر على أذاها وتحتمله من أجل أخيها لأنها لا تستطيع أن تستقل عنه وليس لها ملجأ غير بيته .

وكان هذا الحال أثر فى نشأة إحسان ، فقد كانت بفطرتها ميالة إلى الدلال ، إلا أنها لم تجد الجو الذى ترسل فيه نفسها على سجيتها فى هذا البيت الذى يقوم عليه رجل صارم عنيف يكاد من سوء خلقه وشراسته يتشاجر وثيابه ، وتهيمن عليه شابة رعناء مشغولة بزينتها وتملق غرورها والافتنان فى إظهار سيطرتها وإبراز شخصيتها عن الاهتمام بتدليل طفلة تحسبها وأمها كلا عليها وعلى زوجها ، وعقبة تقف فى طريق الحرية المطلقة التى تهفو نفسها إليها حتى يكون البيت لها وحدها تتصرف فى شئونه كما تشاء . فلم يبق لإحسان إلا قلب أمها وهذه لا تستطيع لشعورها بضآلة مكانها فى البيت أن تبلغ من تدليل ابنتها ما تريد . وهكذا نشأت الطفلة اليتيمة وفى نفسها غلة مشبوبة الأوار لم ينقع صداها حنان الأهل .

وجدت سميرة فى جارتها أم فؤاد قلبا يعطف على حالها تبثه آلامها فتجد عنده فيضا من العزاء والمواساة ينزل على قلبها بردا وسلاما . وقد توثقت عرى الصداقة بينهما ، فما قوى الصداقة بين قلبين كالألم المشترك . ما تكاد إحداهما تجلس إلى الأخرى حتى يتشقق الحديث بينهما عن أيامهما السالفة ، وما تقلب عليهما من نعيم وبؤس ، وما تملان هذه الأحاديث فلها عندهما طرافة لا تبلى ومعين من الجدة لا ينضب .وإذا قضتا حاجتهما من حديث الماضى انتقلتا إلى حديث المستقبل ، وما مستقبل امرأتين كهاتين إلا ذاك الأمل الذى يطالعهما

من عيون أولادهما .

يتيم ويتيمة ! وأمان متحابتان قد نفضتا يديهما من حظوظهما الذاتية وانحصرت أمانيهما فى ولديهما ترجوان أن يخبىء المستقبل لهما حياة هنيئة سعيدة تتعزيان بها عن كثير مما فاتهما ، كم من مرة يقع نظرهما على الطفلين يلعبان معا أمامهما فيحملهما الخيال على جناحه يقطع بهما أجواز الغد حتى يحط بهما على رأس ليلة من ليالى العرس تصدح فيها أنغام الموسيقى وتتعالى فيها أصوات البهجة والفرح يسفر صباحها الجميل عن بيت جديد يعمره عروسان سعيدان يتأود فيهما الشباب ملء إهابهما وتحدوهما الآمال العذبة وترفرف عليهما بأجنحتها ملائكة الحب والسلام .

٦

ترك فؤاد المدرسة الأولية فى المنيل بعد ما قضى فيها عامين . وألحقه خاله بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية بالسيدة زينب . ومكثت إحسان فى مدرستها الأولية عاما ثم آخر التحقت بمدرسة البنات الابتدائية بالمبتديان . ونما الطفلان وأخذ اختلاطهما يقل على الأيام ، إذ شعرا أن حاجزا يقوم بينهما ويأبى على كليهما أن يلعب إلا مع جنسه . وصار فؤاد لا يرافق أمه إذا ذهبت تزور أم إحسان وإن كانت إحسان قد تصحب أمها فى بعض زياراتها لأم فؤاد حيث يراها فؤاد فيحييها ويقبل يد والدتها ثم يتركهما ويمضى إلى غرفة أخرى ليستذكر دروسه ويقضى واجباته المدرسية أو يخرج للعب مع رفقائه . وتبتسم

الوالدتان عندئذ وتلتقى عيناهما فتتبادلان كلاما تفهمه قلوب الأمهات !

وتقدم فؤاد فى دروسه وكان دائما أول فرقته وأحبه مدرسوه ولم يفتهم ما امتاز به من حسن الصوت وإجادة الغناء فكانوا ينوطون به إلقاء بعض المقطوعات الغنائية فى الحفلات السنوية التى تقيمها المدرسة .

وهذه السنة الرابعة قد جاءت وفى ختامها سينال فؤاد شهادة الابتدائية ، وهذا خاله قد فصل له بذلة جديدة وجعل يوصيه بالاجتهاد ليكون فى أوائل الناجحين فى القطر حتى يضمن له الحصول على المجانية فى المدارس الثانوية الأميرية . أما أمه فلا تسل عن فرحها يوم بلغها نجاحه بتفوق فى امتحان الفترة الثانية وقال لها أخوها إنه لا يشك أن فؤادا سيكون ترتيبه فى العشرة الأوائل من الناجحين فى القطر كله .

وشاركتها فى فرحها صديقتها الحميمة أم أحسان وطفقت الوالدتان تتبادلان التهنئة والدعاء وتتمنيان على الله الأمانى .

— أتدرين يا أختى أن فؤادا سيكون بإذن الله فى العشرة الأوائل فى القطر كله ؟

— اسم الله عليه !

— وسينال المجانية فى المدارس الثانوية الأميرية وينجح بتفوق فى الكفاءة والبكالوريا .

— الله يسمع منك يا أختى ويحفظه لك ! وبعد ذلك !

— قال لى خاله إنه سيلحقه بكلية الطب .

— سوف يكون فؤاد دكتورا إذن ؟

— نعم . ألا يرضيك يا أختى أن يكون زوج ابنتك دكتورا ؟

فضحكت أم إحسان وقالت : « يا ليت ! هل لى أن أطمع فى أكثر من هذا ؟ » .

وتنهدت أم فؤاد وهى تقول : « آه متى يكون هذا كله ؟ دون ذلك اليوم أعوام طوال » .

— الأعوام الطوال يا أختى تمر مر السحاب ، ولكن العبرة بالعاقبة وطول العمر .

— صدقت يا أختى . اللهم ارزقنا طول العمر !

وصمتت أم إحسان هنيهة وإذا دمعة تجول فى مآقيها فقالت لها صديقتها : « ماذا بك يا أختى ؟ ألا تقولين آمين » .

وأجابت أم أحسان قائلة : « ليت شعرى أأعيش حتى أشهد عرس إحسان ؟ » .

— الظن فى الله جميل يا سميرة . ستعيشين إن شاء الله حتى ترى أولاد إحسان ابنتك وتفرحى بهم .

وابتسمت أم إحسان ومسحت دمعها بمنديلها وهى تقول لصديقتها مداعبة : « أولاد الدكتور فؤاد ابنك ؟ » .

وأجابتها أم فؤاد وهى تبتسم أيضا : « نعم ، أولادنا نحن الاثنتين ! » .

٧

ولكن الأيام شاءت أن تفرق بين الصديقتين فلم تشهد أم إحسان ولا ابنتها حفلة نجاح فؤاد . ذلك أن محمودا ضياء الدين نقل إلى أسيوط على غير توقع لذلك ، فسبق إليها لتولى منصبه هناك ثم عاد بعد ذلك لأخذ أسرته .

وعز على زاهية أن يخلو مكان صديقتها الحميمة فى الحفلة التى طالما منتا أنفسهما بشهودها ، فملأت لها ولابنتها على سبيل الذكرى كأسين من شراب الورد الذى يدار على المهنئين والمهنئات فشربت هي — وعيناها نديتان بالدموع — كأس الأم وأوعزت لفؤاد فشرب كأس إحسان .

وكان هذا الفراق شديدا على الجارتين الصديقتين فقد كان يخيل إليهما أن إحداهما لا تستطيع أن تعيش بعيدا عن الأخرى . وإن سميرة لتغيب عن أختها فتحية — المقيمة مع زوجها الضابط فى الزمالك — شهرا أو نحو ذلك فلا تشعر بحنين شديد إلى رؤيتها ولقائها ، ولكن يوما واحدا لا ترى فيه صديقتها لأطول عندها من شهر . وكذلك كان شعور أم فؤاد نحوها .

ولما أزفت ساعة الفراق ودعت إحداهما الأخرى وداعا حارا بكتا فيه طويلا وامتزجت دموعهما بين العناق والتقبيل . وشهد فؤاد هذا المنظر المؤثر بين أمه وصديقتها . وكانت إحسان واقفة بجانب أمها تبكى معها ، فلم يملك دموعه وهو واقف على باب الغرفة قد منعه

الحياء أن يتقدم نحوهن ، وسلبه المشهد القدرة على الانصراف ، فوقف حائرا لا يدرى ماذا يصنع حتى التفتت إليه أمه وهو على هذا الحال فنادته : « هلم يا فؤاد .. تعال سلم على خالتك سميرة وودعها » .

فمسح فؤاد دمعه وأقبل فى حياء وتجلد حتى دنا من سميرة فتناول يدها ليقبلها فما أمهلته أن ضمته إلى صدرها وبللت خده بدموعها وهى تقول فى حرارة وإخلاص : « بارك الله فيك يا بنى . الله يصونك لأمك . الله يرفع ذكرك ومقامك بين الرجال ! » .

واملص الصبى من ذراعيها برفق وقد احمر وجهه حياء ووقف مطرق الرأس وهو يتمتم : « أتبقون دائما فى أسيوط ؟ ألا تعودون يا خالتى إلى القاهرة ؟ » .

— بلى يا بنى سنعود إن شاء الله ونقيم هنا بجواركم .

والتفتت سميرة إلى ابنتها وهى بين ذراعى أم فؤاد تمسحها وتلاطفها فهجس ببالها خاطر ابتسمت له ونظرت إلى فؤاد وهى تقول : « ألا تسلم على إحسان يا فؤاد ؟ ألا تودع عروستك ؟ » .

— نعم يا بنى تعال ودع عروستك أيضا .

وتردد فؤاد بين الإقدام والإحجام ، ولكن سميرة أخذت بيده ووضعتها فى يد إحسان ولم تملك أم فؤاد أن جمعت الزوجين الصغيرين بين ذراعيها وهى تغمرهما بقبلاتها . وحذت حذوها أم إحسان . ومرت لحظة نسيت الأمان الصديقتان فيها كل شىء واستغرقهما حلم لذيذ سرعان ما أيقظهما منه صوت خال إحسان وهو ينادى أخته من أسفل سلم البيت يستعجلها للاستعداد للمسير فقالت :

أم فؤاد لصديقتها دون أن تعى ما تقول : « إياك أن تزوجى إحسانا لغير فؤاد » .

ــ فأجابتها أم إحسان قائلة : « بل إياك أنت أن تخطبى له غير إحسان » .

٨

استوحشت زاهية بعد سفر صديقتها الذى ترك فى قلبها فراغا لم يملأه أحد غيرها ، وكانت تؤنسها الرسائل التى تصلها منها بقلم إحسان فتملى على فؤاد جواباتها ولكن هذه الرسائل أخذت تقل على الأيام حتى انقطعت جملة واحدة ، فانقطعت بذلك أخبارها عنها . وهزها الشوق ذات يوم إلى سماع أنبائها فاستصحبت ابنها فؤادا وذهبت تزور أخت صديقتها ببيتها فى الزمالك فأحسنت فتحية استقبالها إلا أن زاهية لم تجد عندها نبأ جديدا عن سميرة . وانتظرت أن تبادلها فتحية الزيارة ولكنها لم تفعل فلم تعد لزيارتها بعد ذلك .

أما فؤاد فقد آلمه بادىء ذى بدء فراق إحسان وشعر كأن شيئا ذا بال قد طار من يديه ، وظل يذكرها مدة ويستعيد أيامه معها منذ طفولتهما الأولى ، وقد يحلم بها فى منامه ، ولكن هذه الذكريات أخذت تقل عددا فى وعيه حتى لم يبق فى ذاكرته إلا صورتان : صورة إحسان فى المدرسة الأولية وهى تنظر إليه معجبة به يوم وقف بجانب مدرسة الأناشيد أمام تلاميذ الفصل ليردد لهم النشيد على اللحن الذى ثقفه فيرددوه بعده ، وصورتها يوم الوداع فى حلتها السماوية وعلى مفرقها

وردة من الشريط في لون حلتها .

حتى هاتان الصورتان اللامعتان أخذ يخفت بريقهما وأخذت معالمهما تغمض على مر الأيام حتى امحتا في عالم النسيان !

دخل فؤاد المدرسة الثانوية الأميرية بالمجانية كما قدر خاله ، ومرت ثلاثة أعوام كان فيها المبرز بين أقرانه دائما لذكائه وجده ونشاطه ، وعظمت منزلته في قلب خاله فزاد تعلقه به وإعزازه له فكان لا يطلب فؤاد منه شيئا من نقود أو ملابس أو أدوات أو غير ذلك إلا أجاب طلبه وحقق له ما أراد . وحسبك أنه اشترى له عودا طلبه منه فؤاد ليتمرن على عزفه في بيته حين انضم إلى فرقة الموسيقى بمدرسته . على أن الشيخ عبد الله البرقاوى قد تردد أولا في إجابة هذا الطلب خشية أن يشغل فؤادا عن دروسه ، فلما ألح عليه فؤاد زاعما له أن ذلك يمت إلى المدرسة بسبب قوى وأنه يريد أن يتفوق على أقرانه أيضا في هذا اللون من ألوان النشاط المدرسى لم يجد بدا من الاتصال بهيئة المدرسة ليتثبت من صحة ما قاله ابن أخته . ولشد ما دهش حين وجد ناظر المدرسة ومدرسيها يطرون فؤادا في هذه الناحية خاصة ويشيدون بتلك الملكة فيه ويوصونه بتحقيق رغبة ذاك الطالب الممتاز .

فرح فؤاد بهذا العود الذى أصبح ملك يديه وأخذ يتدرب على عزفه في أويقات الظهر عقب الغداء وفي الليل بعد أن ينتهى من مراجعة دروسه التى دأب على القيام بها في أوقاتها بنظام فصارت عادة راسخة فيه لم يستطع ذاك النديم الظريف أن يغويه عنها ويحمله على الإخلال بها في بادىء الأمر .

أتقن فؤاد في خلال ذلك عزف كثير من الألحان الشائعة إذ ذاك مما

كان يسمعه من ألواح الحاكى إذ لم يكن قد شاع استعمال المذياع فى مصر بعد . وكان يحفظ أغانيها فيغنيها بصوته الرخيم على نغمات العود . وإذا جاء خاله للزيارة وحده أو مع أسرته فربما اقترح على فؤاد فعزف لهم شيئا من الألحان التى يعرفها فيطربون له أشد الطرب .

ونجح فؤاد فى السنة الثالثة وحاز شهادة الكفاءة بتفوق كدأبه .

وأقبلت أيام العطلة الصيفية — وكان فؤاد يتحرق شوقا إليها — فقضاها فى مصاحبة عوده حتى كاد لا يضعه عن حضنه . ووقع فى يده كتاب فى تاريخ حياة الموسيقيين العظام فقرأه بشغف لا مزيد عليه ، وتاقت نفسه إلى معرفة النوتة الموسيقية وتلقى أصول هذا الفن ، وقد وقر فى نفسه أنه إذا وجد السبيل إلى ذلك فسيكون له شأن عظيم .

وأوجست أمه خيفة حين رأت انهماك ابنها فى مزاولة هذه الآلة الموسيقية ليلا ونهارا وأشفقت عليه منها إلا أنها كانت تهدىء خوفها وتعلل نفسها بأنه حر فى أيام العطلة يقضيها كما يشاء . وانقضت أيام العطلة واستقبل فؤاد السنة الدراسية الجديدة ، فعلق عوده واهتم بدروسه بضعة أسابيع فسرت أمه بذلك ولكن سرورها لم يطل إذ ما لبث ابنها أن عاد إلى الانهماك فى مطارحة عوده .

واشتد قلق الأم على ابنها لما رأت من إهماله لدروسه ، وحدثتها نفسها بأن تخبر أخاها بما طرأ على ابنها من التغير فى سلوكه الدراسى ، ولكن شفقتها عليه منها حالت دون ذلك .

وحل امتحان السنة الرابعة وظهرت النتيجة وسقط فؤاد .

لم تعجب أمه لسقوطه فقد عرفت السبب ، ولكن خاله ريع لهذا الحادث الجديد فى تاريخ فؤاد . والتمس الحقيقة عند أخته فحاولت

التستر على ابنها فلم تقدر وأشارت إلى العود المعلق فى الحائط قائلة : هذا هو السبب !

غضب الشيخ عبد الله البرقاوى وزمجر وقام إلى العود فضرب به الأرض وحطمه تحطيما .

— أنت كنت سبب سقوطه لأنك تسترت عليه . لماذا لم تخبرينى بهذا من قبل ؟

— بأى شيء جديد أخبرك يا عبد الله وأنت الذى اشتريت له هذا العود ؟

سكت عبد الله هنيهة ثم قال كأنه يحدث نفسه : « أجل لقد خشيت هذا الذى حدث . ما كان بودى أن أشترى له هذه الآلة المشؤومة . ولكن ناظر المدرسة نفسه هو الذى أوصانى بشرائها له . والله لا أدرى كيف تضع الوزارة مصاير أولاد الناس وأفلاذ أكبادهم فى أيدى هؤلاء النظار والمدرسين الذين لا يفقهون » .

لم تشأ زاهية أن تعقب على كلام أخيها بشيء ولزمت الصمت حتى قال لها : « وأين فؤاد الآن ؟ »

قالت : « خرج منذ ساعة ليذاكر مع بعض زملائه فى الروضة » .

٩

لم يخرج فؤاد ليذاكر مع أحد زملائه فى الروضة كما زعم لوالدته حين خرج متأبطا بعض كتبه ودفاتره المدرسية ، وإنما ذهب إلى بيت أستاذه الجديد أو بالحرى صديقه الجديد الأستاذ مراد السعيد .

وهو رجل يقارب الأربعين من عمره . كان والده من كبار الأغنياء وقد أرسله إلى أوربا قبل الحرب الكبرى فدرس الفلسفة فى إحدى جامعات فينا ولكنه مال إلى الموسيقى فدرسها فى المعهد الموسيقى هناك حتى نال إجازته ورجع إلى مصر وقلبه يزدحم بالآمال لينهض بالموسيقى العربية نهضة كبيرة .

وأحب فتاة فتزوجها فسعد بها حينا من الدهر غير أن المنية لم تمهلها فاختطفتها منه وهى أتم ما تكون جمالا ونضرة وهو أشد ما يكون شغفا بها وهياما . فكانت وفاتها بعد وفاة أبيه صدمة عنيفة لم تحتملها أعصابه فأصابه مس من الجنون دخل من جرائه المستشفى العقلى حيث مكث عاما ونصف عام . ولما شفى من مرضه أشير عليه بالترويح عن نفسه فأغرم بالرحلات فقضى عامين طاف فيهما ببلدان أوربا متنقلا بين ربوعها وزار كثيرا من بلاد الشرق . ولما عاد من سياحته اختار موقعا يطل على النيل فى الطرف الجنوبى من منيل الروضة فبنى بيتا لطيفا تحيط به حديقة لطيفة .

وهو مقيم فى هذا البيت الجميل بمعزل عن الحياة والأحياء يعيش فيه عيشة التأمل والنسك قلما يخرج منه إلا لزيارة والدته أو لشهود صلاة الجمعة فى مساجد القاهرة المختلفة فقد كان مغرما بالتنقل فيها يجد لذلك متعة خاصة . ويقضى معظم أوقاته فى المطالعة والتأمل . ولديه مكتبة حافلة بصنوف الكتب فى مختلف الفنون ولا سيما الفلسفة والأدب والفنون الجميلة والموسيقى خاصة ، ويعزف لنفسه بين الحين والحين قطعة يختارها من بتهوفن أو فاجنر أو فردى أو غيرهم من نوابغ الموسيقيين . وله بضعة ألحان ألفها أيام كان واسع الأمل فى الشهرة

والنبوغ في هذا الفن قبل أن تحل به صدمته تلك . أما بعدها فقد زهد في ذلك كله . وهو وإن كان يعزف هذه الألحان أحيانا إلا أنه كان لا يرضى عنها ولا يعدها شيئا مذكورا . على أن زهادته هذه لم تمنعه من مواصلة البحث الذى حبب إليه منذ اشتغل بهذا الفن فعقد عزمه على الوصول فيه إلى نتيجة حاسمة ، وهو أن يهتدى إلى حل رموز الموسيقى العربية القديمة حتى يضبطها بمثل ما تضبط به الموسيقى الحديثة . إلا أن عمله في ذلك ينقصه ذلك المضاء الذى لا يتسنى لرجل مثله لا أمل له في الحياة وإنما يتخذ العمل تسلية له يقتل به وقته .

وكان قليل الاختلاط بالناس لا يزور أحدا ولا يزوره إلا نفر يعدون بالأصابع تخيرهم من صفوة المثقفين كانوا يختلفون إليه بالزيارة فيأنس بهم وينعمون عنده بأسمار ممتعة .

واتفق أن كان بين هؤلاء مدرس للآداب له ميل خاص إلى الموسيقى فكان دائما يتولى الإشراف على جمعية الموسيقى في مدرسته ويبذل لها من العناية ما لا يقل عن اهتمامه بعمله الأساسى . واتفق كذلك أن تكون المدرسة التى يعمل فيها هى المدرسة التى يتلقى علومه فيها الطالب فؤاد .

أعجب الأستاذ محمد معين بفؤاد ودأب على تشجيعه منذ تبين فيه الملكة الموسيقية العجيبة ، وكثيرا ما قال له : « إنك يا فؤاد ستكون موسيقارا عظيما » . وتحدث إلى الأستاذ مراد السعيد في بعض أسماره عن هذا الطالب العجيب وما توسم فيه من آيات النبوغ فاشتاق مراد إلى رؤيته وزاد شوقه إليه حين علم أن هذا الموسيقار الصغير يقيم في نفس الحى . فاقترح على صديقه المدرس أن يستصحبه في زيارته القادمة

فما هي إلا أيام حتى تم اللقاء الأول بين فؤاد الصغير وبين الأستاذ الكبير .

عجب فؤاد للحفاوة التى لقيه بها ذلك الرجل الأبيض الوسيم ، ذو الشعر الأسود الفاحم ، وهو فى جلبابه الأبيض الناصع تنطق عيناه السوداوان بالنبل والسماحة ، وفى وجهه مس من الشحوب كما يبدو على وجه الصائم قبيل غروب الشمس . وداخلته الهيبة وهو يمد يده ليصافح تلك الكف الرخصة السبطة الأنامل ، ولكن البشر الهادىء فاض به وجه مصافحه السمح الوديع سرعان ما استل الهيبة من قلبه ليحل مكانها الائتناس والحب . على أنه لم يستطع التخلص من الحياء الذى صبغ وجهه حين رأى هذا الرجل المهذب يعامله كما يعامل مدرسه ويسوى بينهما فى المجلس والاحتفاء :

— حدثنى عنك الأستاذ معين حديثا شاقنى يا فؤاد إلى رؤيتك وها أنت ذا قد زرتنى فأهلا بك .

أراد فؤد أن يقول شيئا يجيب به مخاطبه فلم يسعفه لسانه بشىء .

— إنه يستحيى منك يا أستاذ مراد . وسيعجبك حديثه حين تزول عنه هذه الكلفة التى أضفاها عليه حديث عهده بمعرفتك .

— خل عنك هذه الكلفة يا فؤاد واعلم أنك عندى بمنزلة الأستاذ معين . أآجىء لك بعود لتسمعنا شيئا من الألحان التى تجيدها ؟

تلعثم فؤاد لا يدرى بماذا يجيبه ولكن هذا الحياء الذى استولى عليه لم يدع له سبيلا للاعتذار عما طلب منه وكأنه أراد — دون وعى منه — أن يتخلص من موقفه ذاك بأى شىء يتشاغل به فأشار برأسه أن نعم . وما أسرع ما حضر العود فإذا هو بين يديه .

— أى لحن تحبون أن أغنى لكم ؟

قال له مراد السعيد : « غن اللحن الذى تختاره يا فؤاد » .

بدأ فؤاد يعزف لحنا من ألحان الشيخ سيد درويش ولما استقر له اللحن واطرد النغم تابعه بالغناء . فعجب مراد من براعة الغلام وخفة أنامله وهى تتردد منسابة على أوتار العود وأعجبه صوته الرخيم الذى يطاوعه فى الطبقات المختلفة . وتبين فى أثناء اللحن الذى غناه رعشات تحيد به قليلا عن اللحن الأصلى وتعبر عن روح خاصة ، فسأله من أين تلقى هذا اللحن ولما أجابه فؤاد بأنه أخذه عن الحاكى أيقن أنه أمام موهبة موسيقية نادرة قد تسلك صاحبها — إذا وجهت توجيهـا صالحا — فى نوابغ الموسيقيين .

قال له مراد السعيد : « إنك مدهش حقا يا فؤاد . هلم معى أختبرك اختبارا بسيطا جدا » . ونهض الثلاثة إلى غرفة البيانة وهناك اختبره مراد السعيد فى السلم الموسيقى على طبقات مختلفة فلم تخطىء أذن فؤاد فى تمييز النغمات مهما دقت فروقها فازداد مراد عجبا منه وإعجابا به .

وتكررت زيارة فؤاد للأستاذ مراد وما يزداد هذا إلا تعلقا به ورعاية له حتى صار يزوره كل يوم .

١٠

ما كان أحد منهما يعلم حين تم ذلك اللقاء الأول أن ستنشأ عنه بينهما صداقة العمر ، وأن هذه الصداقة سيكون لها من الأثر على كليهما ما يحول مجرى حياته . التقيا فكأنما حدث بينهما تفاعل كيموى ! هذا فؤاد يجد نفسه بين عشية وضحاها فى معهد موسيقى على خطوات من بيته لا يشاركه فيه من الطلاب أحد . ومن يديره ويعلم فيه ؟ رجل فنان ليس فى القطر كله من يضارعه فى ثقافته الموسيقية ، وأى أجر يطمع فيه هذا الرجل الكريم ؟ لا أجر إلا أن يرى هذا الناشىء المغمور وقد أصبح يوما موسيقيا مشهورا .

ما كان مراد السعيد يهتم بشىء من شئون الناس . وقد نفض كفه من غرور الدنيا وباطلها . فلا يبالى منهم من قام ومن قعد . فما الذى جعله اليوم يعنى بأمر فؤاد ويقضى الساعات الطوال فى تعليمه وتوجيهه وليس يربطه بهذا الغلام اليافع سبب من قرابة أو رحم ؟

كان ينظر إلى الحياة نظر المولى عنها النافض كفه منها لا يعنيه منها أمل يواتيه ولا يحزنه شىء يفوته ، فلما عرف فؤاد أحس كأنما بعث من جديد ليؤدى رسالة فى الحياة .

إنه لم يجرب حب الولد فقد ماتت زوجته قبل أن يرزق منها ولدا ، ولكنه يحس فى نفسه أن لو رزق ولدا ما أحبه أشد من حبه لفؤاد . فقصاراه فى أغلب الظن أن يكل أمر ولده إلى المدرسة ولا يعنيه أن يتولى تثقيفه بنفسه كما يصنع مع فؤاد . ولعل حبه لفؤاد أشبه ما يكون

بحب الفنان لأثره الجديد الذى لا يزال فى دور التكوين وهو يعتز به ويطمع أن يكون آيته الفنية الخالدة .

وكان من آثار هذا التبدل الذى طرأ على حياته أن استيقظت فى نفسه الرغبة فى إنجاز عمله العظيم من بعث الموسيقى العربية القديمة بالاهتداء إلى حل رموزها فأخذ يعمل فى بحثه هذا بهمة ونشاط وهو يتمنى على الله أن لا توافيه المنية حتى يطلق تلك الأغانى العربية القديمة من سجونها فتترجع أنغامها فى سماء هذه البلاد مرة أخرى .

١١

لم يكترث فؤاد بسقوطه فى الدور الأول من امتحان السنة الرابعة إذ كان حينئذ فى الأيام الأولى من انعقاد الصلة بينه وبين هذا الصديق الكريم . وعلى أى شىء يأسى فؤاد وقد وجد عند هذا الصديق كل ما تصبو إليه نفسه من الآمال ؟ ولما رجع إلى بيته ووجد حطام العود وحدثته أمه بما كان من غضب خاله جعل يضحك كأنه يقول لخاله بلسان الحال : « أتراني أحتاج إلى عودك هذا ؟ أين أنت من العيدان والمزاهر والمعازف التى فى البيت الآخر ؟ » .

— علام تضحك يا فؤاد ؟ أسرورا بنجاحك فى الامتحان هذه السنة ؟

— لا تبتئسى يا أماه لسقوطى فى هذا الامتحان فسأنجح فى امتحان أعظم منه .

— ما تعنى ؟

— ستعرفين ذلك فيما بعد حين يكون لابنك صيت عظيم .

— لعلك تعنى هذه الموسيقى التي تضيع وقتك فيها عبثا .

— ليس هذا عبثا كما تظنين . إنما العبث أن أقضى وقتي الثمين فى استظهار دروس وحل تمرينات تورث الصداع والسأم ولا تفيدنى شيئا .

— أنا جاهلة يا بنى لا أفهم ما تقول ولكن قل هذا لخالك عسى أن يفهم عنك ما تريد .

— أأقول هذا لخالي لكى يوجعني ضربا ؟ لا يا أمي إنه لا يستطيع أن يفهم وجهة نظرى الآن ولكنه سيقتنع بها فى المستقبل .

— يا بنى إن خالك أعرف بمصلحتك منك وهو لا يبغى لك إلا الخير ، ويريد أن يجعل منك طبيبا عظيما . فلا تخيب يا فؤاد أمله وأملى فيك . تذكر يا ولدى أنه ليس لى غيرك ؟

وترقرق الدمع في عينيها وهي تقول هذه الكلمة الأخيرة ، فقام إليها فؤاد وطوق عنقها بيده وجعل يقبل رأسها وهو يقول : « لا تخافى يا أماه سأكون سندا لك وستفرحين بابنك وتفخرين به » .

فجعلت أمه تقبله وتنصحه بالاجتهاد لينجح فى الدور الثانى ، فيعدها بذلك . ولكن الدور الثانى جاء ولم ينجح فؤاد أيضا ، فاستشاط خاله غضبا لأن تحطيمه للعود لم يؤد إلى الغرض المنشود ولم تستطع أخته أن تكتمه اتصال فؤاد بالأستاذ مراد السعيد وتردده عليه حتى منعه ذلك من الاهتمام بدروسه ، فأراد خاله أن يقطع هذه الصلة بينهما فذهب لزيارة الأستاذ مراد على غير معرفة سابقة به ، فكان من أمره معه ما كان .



فاستشاط خاله غضبا لأن تحطيمه للعود

لم يؤد إلى الغرض المنشود

وانتهت العطلة ورجع فؤاد إلى المدرسة ليعيد السنة الرابعة . وكان خاله قد أشبعه لوما وتقريعا . واستعمل معه كل ما قدر عليه من ضروب التهديد والإغراء وذكره بأن المجانية قد طارت منه وأنه يتعلم الآن بمصروفات كاملة وهو لا يبالى أن يدفعها لثقته بأنه إذا عاد إلى سيرته الأولى من الاجتهاد والنشاط فسينجح بتفوق لا ريب ، وحينئذ لا يصعب عليه أن يستعيد له المجانية . وكان فؤاد يصغى إلى نصائح خاله وفي قلبه معنى لو اختير بيت من الشعر للإفصاح عنه لكان قول الشاعر :

ولئن وعدتك تركها عدة إنى عليك لخائف خلفى !

ولم يكتف الشيخ عبد الله البرقاوى بهذا حتى صحب ابن أخته فى اليوم الأول إلى المدرسة فلقى به ناظرها وذكره فى لهجة لا تخلو من العنف بأن الموسيقى اللعينة كانت سبب سقوط ابن أخته فهو لا يرضى أن تشجعه المدرسة على الاشتغال بها بعد الآن .

وابتسم الناظر وقال له : « إن المدرسة ما شجعته على الموسيقى لتلهيه عن دروسه الأساسية ، بل ليتخذها فنا رفيعا يزجى به أوقات فراغه .

— ولكن العبرة بالنتيجة وعلى أى حال فإننى لا أرضى قط أن تضموا فؤادا إلى جمعية الموسيقى هذه التى فى مدرستكم مهما يكن رأيكم فيها فما أدخلته المدرسة لأجعل منه مغنيا فى آخر الزمان !

فضحك الناظر ومن حضر مجلسه من المدرسين فقال وقد أعجبته صراحة الشيخ وصدق لهجته ، وعذره فيما بدر من حدته لما تنم عنه من طيبة قلبه وحسن سريرته : « اطمئن يا شيخ عبد الله سنحترم إرادتك

وسترى من فؤاد ما يسرك » ثم التفت إلى فؤاد الذى كان واقفا أمام مكتب الناظر مطرق الرأس وقال له : « حسبك يا فؤاد حلمى ما حذقته من الموسيقى . عليك الآن أن توجه عنايتك كلها لدروسك الأصلية التى لا تنجح فى الامتحان إلا بها . عدنى بهذا أمام خالك » .

فوعده فؤاد بذلك وهو يغالب ابتسامة تحاول الانطلاق من شفتيه لأنه أدرك فى قرارة نفسه أن الناظر لا يعنى ما يقول وأنه إن اصطنع الجد والصرامة فى لهجته فلكى يرضى خاله . وكأنه يقول فيما بينه وبين فؤاد : « نحن فى الباطن متفقان » .

ومرت السنة المدرسية بسلام ونجح فؤاد من الدور الأول فتنفس خاله الصعداء وحمد الله على أن سعيه لم يذهب سدى ، وإن لم يكن سروره كاملا لأن فؤادا لم يكن متفوقا فى ترتيبه بين الناجحين كما أمل هو . ولكنه لم يكترث لهذا كثيرا فحسبه أن ابن أخته نجح . أما المصروفات فقد وطن نفسه على دفعها من عنده ولا يثقل عليه ذلك فى سبيل فؤاد ما أفضى إلى المنفعة المرجوة .

وكان بعض الفضل فى نجاح فؤاد هذه المرة يرجع أيضا إلى الأستاذ مراد السعيد فقد نصحه منذ علم بحاله وبما جرى من خاله بأن يولى شيئا من عنايته لما تطلب المدرسة منه حتى يجمع بين الحسنيين ويرضى نزعته الفنية ورغبة خاله معا . فما كان من فؤاد إلا أن قسر نفسه على استظهار دروسه قسرا ولا سيما فى الشهرين الأخيرين قبل الامتحان . وقد شعر هو نفسه على أثر نجاحه فى الامتحان براحة كبيرة لم يكن يتوقع مثلها من قبل : فها هو ذا يستقبل العطلة الصيفية بنفس مطمئنة وصدر منشرح فى وسعه الآن أن يقضى وقته كما يشاء دون أن

يكون عليه من أمه وخاله عذول أو رقيب . وهكذا عاهد فؤاد نفسه على أن لا يقصر في حق من حقوق المدرسة عليه وأن يعمل جهده على التوفيق بين ما يريد لنفسه وما يريد ذووه له على حد قوام وقد وضح له أن ذلك مطلب غير عسير .

١٢

استقبل فؤاد أيام العطلة بلهفة وشوق كما يستقبل السجين حريته بعد طول الاعتقال . وقد أراد أن يفيد من هذه الفرصة السانحة جهده ويروى في خلالها الغلة الفنية التي تتقد بين جوانحه . وكان قد حذق لذلك الحين عن أستاذه مراد السعيد شيئا من أصول الموسيقى وعرف النوتة وبرع في عزف جملة من الألحان العالمية الشهيرة وأتقن الضرب على البيانة وأخذ يتمرن على عزف الكمان .

ولم يقصره مراد السعيد على ما يتصل بالموسيقى بل وجهه نحو القراءة الأدبية ففتح له مكتبته القيمة يختار فؤاد من كتبها الأدبية ما يروق له فكان يلتهم الكتب التهاما وأفاد فؤاد من قراءته هذه محصولا ثقافيا لا يعد ما حصله في المدرسة إليه شيئا .

كان يخرج من بيته مبكرا في الصباح فيأخذ معه كتابه وينطلق إلى حديقة من الحدائق العامة فيتجول فيها ساعة ثم يختار مكانا ظليلا يجلس فيه فيطالع في كتابه حينا ويرسل طرفه في كتاب الجمال المفتوح أمامه حينا آخر فربما انطلق به خياله فارتفع به عن المشهد المنظور أمامه وطار به إلى سماوات بعيدة تتنوع فيها المشاهد الغريبة

وتتلاحق الرؤى والأحلام وتتمازج الألوان البهيجة والأنغام المشجية ، حتى إذا اعتدل ميزان الظهيرة رجع إلى بيته فتغدى ونام . فإذا كان العصر ارتدى ملابسه وذهب إلى بيت الأستاذ مراد حيث يحتسى الشاى معه على الشرفة المطلة على النيل ويمكث عنده إلى الساعة التاسعة يذاكره الأستاذ فيما قرأ ، أو يمرنه على عزف لحن جديد أو يحدثه عن بعض ذكرياته وأخبار رحلاته .

ومرت أيام العطلة كالحلم ولم يبق إلا نحو أسبوع واحد يعود بعده فؤاد إلى القيد . ما كان أثقل هذا على فؤاد ، ولكنه تذكر العهد الذى قطعه على نفسه فوطن نفسه على مواجهة الأمر الواقع بالصبر والرضى . على أن هذا الصراع الذى قام فى نفسه بين الانسياق لما تميل إليه من الحرية ، والانصياع لما هو محمول عليه من احتمال القيد ..قد أورثه غما لازمه يومه ذاك لا يدرى هو على التحقيق ما مصدره ، ولا يرى مجلس مراد السعيد كفيلا بتسريته عنه . فرأى أن يروح عن نفسه بالذهاب إلى إحدى دور السينما . وكان فؤاد مغرما بها من صغره يذهب إليها كل خميس ليشهد الحفلة النهارية ، وكان خاله لا يرى بأسا بذلك : ولما كبر قليلا صار يشهد الحفلة الليلية الأولى ولكنه قل اختلافه إليها إلى حد الندرة منذ اتصل بالأستاذ مراد السعيد ، إذ كان يؤثر مجلسه على أى متعة أخرى . وفى أوائل عهده بالاختلاف إليه كان ربما زعم لأمه أنه ذهب إلى السينما كعادته الأسبوعية فلا يذهب إليها بل يسمر مع أستاذه الحبيب .

خرج فؤاد من بيته قبيل غروب الشمس ، ووقف على محطة الغمراوى ينتظر إحدى عربات البيس ليركبها إلى العتبة الخضراء

(ميدان الملكة فريدة الآن) ، ولكن انتظاره طال ، فقد كانت العربات تمر مكتظة بركابها حتى أن سائقيها يتحاشون الوقوف على تلك المحطات لئلا يركبها أحد بعد . وكلما حدث نفسه بأن لا فائدة من الانتظار ، وأن عليه أن يمشي على قدميه إلى القصر العينى أو إلى شارع الروضة ليركب الترام من هناك . وعزم على ذلك ، تراخت قدماه ، وعز عليه أن يذهب سدى ما قد أضاعه من الوقت فى الانتظار ، وهؤلاء الواقفون ينتظرون مثله ، فعلام يشذ عنهم ؟ ورجا أن يكون فى العربة القادمة موضع للركوب ، ولكنها مرت مختالة بمن فيه دون أن تقف ، وتلتها كذلك ثانية ، ثم ثالثة ، ثم رابعة ، وهو يتململ ويتأفف ، وقد امتلأ قلبه غيظا من طول ما ترجح بين الأمل والخيبة ، وألما ممضا لما ألظ به من التردد بين السير والانتظار .

وكان الوقوف حوله مثله فى هذا الشعور ، وقد سمع بعضهم يزمجرون ويلعنون هذه الشركة الأجنبية التى تبتز أموال الأهالى دون أن تهتم براحتهم كأنما احتكرت هذه الخطوط لتحتكر تعذيبهم وتنغيص عيشهم .

أما هو فقد كاد من غيظه يلعن نفسه على أن صبر مثل هؤلاء على هذا الهوان الطويل ، وله فى ذلك مندوحة بمسافة ربع ساعة ، يقطعها على قدميه .

وجمع معاقد عزمه فمشى صوب القصر العينى يدق الأرض بخفيه دقا شديدا ، كأنما يريد أن يثأر منها ومن نفسه . ولكنه ما كاد يبتعد عن المحطة رمية حجر حتى أقبلت سيارة فوقفت بها ، فمن له أن يكر راجعا ليدركها ولكنها تحركت للسير فانطلق مسرعا ليدركها على

المحطة التالية ، ولكنها أدركته قبل ذلك ومرت به منطلقة بأولئك الذين كانوا وقوفا معه وشاركوه ألم الانتظار فانفردوا دونه بلذة الظفر . وكأنه بهم ينظرون إليه شامتين به وما أساء إلى أحد منهم ، ومزهوين بنجاحهم من حيث أخفق هو كأن لهم فضلا فيما أصابوه من النجاح وكأن عليه ذنبا فيما أصابه من الإخفاق ! .

اغتم فؤاد لما حدث واشتد به الضيق حتى كاد يعدل عن شهود السينما ، فلابد أن يكون أوان استهلالها قد فات ؛ ولكنه رأى أن التراجع عن قصده خور لا يليق بمثله ، فمضى فى سبيله وأخذ يهون الخطب على نفسه ، ولكنه ما يزداد إلا تفاقما حتى كاد ينفجر صدره من الضجر ، وبقى عنده هذا الشعور البغيض حتى بعد أن ركب الترام .

ولم يكن هذا الذى وقع لفؤاد بأول ما حدث له من هذا القبيل فقد تكرر مثله مرارا ولكن لم يحدث له من ضيق الصدر مثل ما شعر به الليلة . فلابد أن يكون شىء من ذلك راجعا إلى حالته النفسية .

وطاف فؤاد بمختلف دور السينما فلم يرقه برنامج من برامجها وخطر له فى خلال ذلك أن يدخل إحدى الكازينات فلم يسبق له شهود هذا النوع من الفرج الليلية . وتذكر أن الأستاذ مراد السعيد كثير التنديد بهذه الكازينات التى تلصق باسم الفن والفن منها براء فهى مباءات للفساد تقتل الأخلاق والفن معا وعلى الحكومة أن تقفل أبوابها صونا لأخلاق الشبان والفتيات وحفظا لسمعة البلاد وكرامتها . وكأن ما سمعه من أستاذه مراد زاده ميلا إلى مشاهدة هذا النوع الذى ندد به فدخل إحدى الكازينات فى شارع عماد الدين بدون تردد طويل .

نسي فؤاد نفسه في ذلك الجو الخلاب المثير الذى هاج أعصابه وأيقظ غرائزه وطفق ينظر إلى الرقصات الخليعة والمناظر الاستعراضية كالمجنون ؛ وما انتبه إلى نفسه إلا حينما ظهرت على المسرح راقصة جديدة فصفقت لظهورها الأكف طويلا وخفق الذى بين جنبيه خفوقا شديدا أشفق أن يسمع دقاته الناس حوله لولا ذلك التصفيق المدوى الصاخب .

من هذه الرشيقة السمراء تتخطر في دلال وخفر أو ما يشبه الخفر ؟ لمن هذا الثغر الغضيض الذى يبض دائما بالابتسام على جهد ومشقة كما تبض قطرات الماء من نبع ضيق ؟ وجبين من هذا الجبين الذى ينضح بعبوس حريف حلو كأنه مرارة الكأس في أفواه الشاربين ؟

— من هذه ؟ هذا الوجه غير جديد على . لقد عرفته من قبل وألفته . وى ؟ وهذه .. هذه .. كلا هذا مستحيل . معاذ الله أن تعمل إحسان راقصة فى هذا المحل الخليع . راقصة .. راقصة .. لا يا فؤاد .. . إنها فى أسيوط مع خالها وأمها .. ألا يجوز أن تعود إلى القاهرة ؟ .. وحدها ؟ .. لا بل مع أمها وخالها .. لو وقع هذا لجاءت تزورنا . خالتى سميرة لا يمكن أن تجيء إلى القاهرة ولا تزور أمي . هذا محال . ثم هذه أكبر من إحسان . انظر : قوامها أطول .. وردفها أثقل . وهذان النهدان البارزان ليس لإحسان مثلهما .. لكن سبحان الله أين ذهب عقلك ؟ أتظن إحسان اليوم كما كانت من قبل ؟ أما ترى إلى أترابها فى الحى قد كبرن وغدون كهذه طولا وعرضا وبعضهن تزوجن ؟

وأخرج فؤاد منديله ليمسح به ما ارفض على جبينه من العرق ،

وأحس بجفاف شديد فى فمه وفى حلقه وأعوزه الماء فجعل يبلع ريقه ويبل بلسانه ما تخشب من شفتيه . وما لبث أن عاد إلى حديث نفسه وغرق فى خواطره وعينه عالقة بالراقصة تتبعها يمينا وشمالا وعلوا وسفلا .

تقول إن أترابها كبرن وتزوجن .. هذا حق ولكنهن لم يعملن راقصات يعرين أجسادهن لعيون الناس . لا أحد منهن ترضى أن تزاول هذه المهنة الساقطة ولو أردن ذلك لمنعهن أهلوهن ... مهلا يا فؤاد هذه الراقصات الكثر فى هذه الكازينة وغيرها من أين أتين ؟ أليس لهن أهلون وذوون ؟ لعلهم ماتوا وتركوهن للأيام فاضطرهن الجوع إلى هذا السبيل ! » .

وهنا انتفض فؤاد إذ هجس بباله خاطر اجتهد فى صرفه فلم يقدر « أمات خالها ؟ وأمها أماتت هى أيضا ؟ » .

ودارت الفتاة دورة سريعة إيذانا بانتهاء رقصتها فصفق لها الجمهور تصفيقا طويلا وانحنت هى تحييه وترسل قبلاتها بيديها إليه . ثم انطلقت فى خفة وتوارت عن الأبصار .

ولكنها بقيت ترقص فى قلب فؤاد وظل خيالها يرقص فى عينيه ! فلم ينتبه لما عرض أمامه من المناظر بعد ذلك . ولبث يحملق إلى المسرح علها تبرز مرة أخرى حتى أعياه ذلك . فأخذ يتلفت إلى من بجواره من المتفرجين كأنه يهم أن يسألهم عن شىء ويمنعه حياؤه .

وكان عن يمنيه كهل يبدو من حركاته وتعليقاته على المشاهد المعروضة أمامه أنه من مدمنى الصالات ، وقد رابه تلفت فؤاد إليه فقال له : « ماذا تريد يا بنى : هل من حاجة ؟ » .

— معذرة يا سيدى .. لا شىء غير أنى أود أن أعرف اسم الراقصة التى رقصت آنفا .. أتعرف ما اسمها ؟

وليس فى هذا السؤال من غرابة ولكن لهجة فؤاد المرتعشة جعلت الرجل يستغرب سؤاله فابتسم له ابتسامة ذات معنى وقال له « هيه .. لعل نفسك فيها .. أعندك نقود كثيرة يا شاطر ؟ » .

فامتقع وجه فؤاد وتمتم قائلا : « لا والله ما أعنى هذا » .

— فعلا تريد أن تعرف اسمها ؟

— رأيتها تشبه جارة كانت لنا فى المنيل فأردت أن أتبين أهى هى أم فتاة سواها .

— أهذا كل ما تريد ؟ اسمها إحسان يا بنى .

— إحسان .. أموقن أن اسمها إحسان ؟

— أنا لم أطلع على شهادة ميلادها ولكنها تدعى بهذا الاسم هنا .

— كأن الراقصات يغيرن أسماءهن ؟

— أحيانا نعم وأحيانا لا . فما اسم جارتك التى تذكرها ؟

— إحسان ضياء الدين .

فنظر الرجل فى ورقة الإعلان التى فيها صور أعضاء الفرقة وقال له : « لا . هذه إحسان زكى . انظر . ها هى ذى صورتها .. خذ الورقة إن شئت » .

فأخذ فؤاد الورقة وجعل يتأمل فيها ويقول بصوت خافض : « مثلها تماما ! » .

— يجوز أن تكون هى جارتك بلحمها وعظمها وليس ببعيد أنها غيرت اسم أبيها على سبيل التستر .

وكان الرجل خليقا أن يتضايق من أسئلة فؤاد التي صرفته عن متابعة المشهد التمثيلي الدائر إذ ذاك لولا أنه استطرفها من هذا الحدث الغريب الأطوار . فلما رآه قد غرق في الصمت حركه للكلام مرة أخرى فبدأه قائلا : « يظهر لي أن أمر هذه الجارة يهمك كثيرا ، قل لي هل تحبها ؟ وكيف يخفى عليك أمرها وهي تقيم في حيكم فهل انتقلت من الحي ؟ » .

— نعم انتقل أهلها إلى الصعيد .. إلى أسيوط .

— انظر ، ها هي ذي صاحبتك في ذاك اللوج .

والتفت فؤاد إلى يساره فرأى الراقصة في أحد الألواج تنادم رجلا معمما يظهر من هيئته وسمته أنه عمدة من الريف . ولا تتحاشى أن تقرص خده أو تميل له كتفها العاري ليلثمه .

لم يطق فؤاد الصبر على رؤية هذا المشهد وغلى الدم في رأسه فنهض من مجلسه بعنف . ولما حاول جاره أن يصرفه عن القيام لما قرأ في عينيه من الشر لم يحفل به فؤاد وجذب يده من يده وانسل من الصف والرجل يتابعه بطرفه حتى ظهر له على اللوج !

لم يطل الحديث بين فؤاد والراقصة فقد بدأه بأن ناداها باسمها فاستغربت لهجته لأنها لم تعرفه . وقد هم عشيقها العمدة أن يطرده من اللوج ولكنه ملك غضبه ريثما يرى ما يكون من أمره .

— قومي معي يا إحسان إلى البيت ، لا يحق لك أن تمكثي هنا في هذا الوسط الدنس !

— من أنت يا غلام حتى تقول لي هذا ؟ ما شأنك بي ؟

— أنا فؤاد حلمي .. أما تذكرينني يا إحسان ؟

— لا . لا أذكرك ولا أعرفك . أمجنون أنت ؟ ماذا تريد ؟

— هل ماتت أمك يا إحسان ؟

— سؤال غريب . نعم ماتت يرحمها الله . ماذا يهمك أمرها ؟

— وهل مات خالك أيضا ؟

— خالى .. ما سؤالك عن خالى ؟

— لابد أنه مات وإلا لما رضى أن تشتغلى راقصة .

— أنت مجنون .. اخرج من هنا !

وهنا قام العمدة وقد نفد صبره فرفع عصاه ليضربه بها فأمسك فؤاد بطرف العصا واشتبكا فى العراك وارتفع الضجيج فى القاعة وتطلع الناس إلى هذه المشاجرة وما يشكون أنها منافسة بين عشيقين على هذه الراقصة كما يحدث ذلك كثيرا فى الصالات .

وما أنقذ فؤادا من قبضة هذا العمدة ومما عسى أن يصيبه من اعتداء أعوانه عليه إلا ذلك الكهل الذى كان جالسا على يمينه ، فقد جذبه من يده وانسل به خارج باب الصالة وهو يقول له : « كن عاقلا يا بنى إنها ليست جارتك وإلا لعرفتك . وهب أنها هى فما تستحق اهتمامك بعد أن رأيت منها ما رأيت » .

وصحبه الرجل إلى شارع بولاق (شارع فؤاد الآن) ولم يدعه حتى أركبه الترام رقم ١٥ الذاهب إلى قصر العينى وودعه وانصرف .

انطلق الترام وفؤاد مشترك اللب لا يشعر بشىء مما حوله . وما ذكره بالنزول إلا صوت التذكرى يؤذن عجوزا فى الركاب تريد النزول فى قصر العينى فهب فؤاد ونزل خلفها . وسار تقوده قدماه صوب المنيل ، ولما جاز (جسر محمد على) أحس بالهواء البليل المنعش

فأدرك أنه قد بلغ حدود الحى .

وكانت السماء صاحية تلمع فيها النجوم . وخيل إلى فؤاد أن عيونها موكلة به وأنها جميعا ترقب أمره وتتساءل عن سره كأنما لا يعنيها فى الوجود الواسع سواه . ونظر إلى أعمدة المصابيح التى تتخلل الطريق تصدع ظلامه صدعا رفيقا بضوئها الخافت فأنس إليها . وخيل له أنها تعلم بعض ما يضطرب فى صدره فتغض طرفها عنه ويهمس بعضها لبعض : « إياكن والفضول . دعن هذا الشاب الوحيد يمر فى طريقه بسلام ! » .

ومر بقصر الأمير محمد على فنظر إلى الساعة البرجية القائمة على سدة السور فاجتهد أن يتبين عقربيها — أو بالحرى حيتيها فهما على شكل الحية — فإذا هما تشيران إلى الساعة الحادية عشرة . فتذكر أمه وأخذ يزور فى نفسه سببا يعتذر لها به عن تأخره فى العودة إلى البيت حتى ذلك الوقت . وحار أيخبرها بما حدث له فى المرقص أم يكتم عنها حديثه .

وإنه لكذلك إذا برعدة من الخوف المبهم تسرى فى فرائصه وإذا شعره يقف وقدماه تصطكان وتتخاذلان عن المشى وإذا هو يسمع — أو خيل إليه أنه يسمع — حفيفا ووسوسة آتيين من قبل الحقل الصغير الواقع عن يمينه فالتفت نحوه بحركة عصبية فإذا هو يرى — أو توهم أنه رأى — شيئا أبيض كالقطن المندوف يتدحرج أو ينساب — لا يدرى هو على التحقيق — حتى اختفى وراء الخرابة المهجورة القائمة فى أقصى الحقل على النهر .

تذكر فؤاد فى لمح البصر ما يتناقله سكان الحى من مختلف

الأساطير عن هذا الطلل القديم الذى يدعونه « خرابة الشاعر » وما يروونه من الحكايات التى وقعت لكثير منهم حين مروا بها ليلا من رؤية شبح أو سماع صوت كالأنين ونحو ذلك فداخله رعب عظيم ، وتوهم أن ذلك الشبح يسير خلفه ليستدرجه ويرجع به إلى الخرابة ، فانطلق مسرعا لا يلوى على شىء حتى بلغ دكان البدال الذى على رأس شارعه — وكان لا يزال مفتوحا ومع البدال نفر يسمرون عنده — فكف عن الجرى ومشى متمهلا وهو يلهث حتى بلغ باب داره وطوى السلم المظلم طيا إلى حيث وجد والدته ساهرة تنتظره .

١٣

انتبه فؤاد فى صباح اليوم التالى وهو واهن الجسم ، فاتر الأعضاء ، لقس النفس كليل الذهن ، وفى رأسه صداع وفى فمه مرارة ، فأراد أن ينهض عن فراشه فخانته قواه فأسلم رأسه إلى الفراش ثانية . وجاءت أمه لتوقظه فرأته يتمطى ويئن ويتوجع فسألته ما باله فقال لها بصوت ضعيف إنه عيان .

وجست جبينه فوجدته محموما فسوت له ما تشعث من ملاءة فراشه وهى تقول : لابد أن بردا أصابك يا بنى البارحة وذهبت لتحضر له الشاى والدواء .

وطفق فؤاد يتذكر حوادث الليلة الماضية . كأنها حلم مزعج ، وتتابعت الصور فى ذهنه : الكازينة والفتاة والراقصة والرجل الكهل ، والعمدة وعصاه الغليظة والترام ، والساعة البرجية والقطن المندوف

وما أشبه هذا كله بالأحلام .

مكث فؤاد ثلاثة أيام لا يخرج من البيت لمرضه وإعيائه ، ولا تبرح ذهنه فيها صورة تلك الراقصة الرشيقة السمراء ، وهي تثني وتهز أعطافها وأردافها وعكنها في ثوب لا يسترها — إن هو سترها — إلا ريثما ينفرج عن مفاتن جسدها ومكامن الشهوة فيها ، كأنما وقفت لتعرض بضاعتها على الشارين وقد اشتراها منهم ذاك العمدة البطين .

أحقا يا فؤاد أنها ليست إلا إحسان ضياء الدين جارتك ورفيقة صباك ؟ إن كان هذا حقا فيالقسوة الأيام !

وخطر لفؤاد غير مرة أن يحدث أمه بما رأى في الكازينة لعله يجد عندها ما يزيل حيرته في أمر إحسان ، فيصده عن ذلك خوفه من غضب أمه إذا هي علمت بذهابه هناك . وتملكته الحيرة فترجحت به بين : هي وليست إياها ، فغدا قلبه كأنه كرة التنس أو كرية البنبون يتقاذفها مضربان قويان في يدى لاعبين ماهرين !

وعجبت أمه إذ دخلت عليه ذات يوم فوجدته ينقر بأصابعه على المنضدة وهو يهمهم بصوت غير مفهوم ووجهه ينقبض وينبسط وحاجباه يرتفعان وينخفضان وكأنه في غيبوبة لا يعي مما حوله شيئا فضربت كفا بكف وقالت : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! ماذا بك يا فؤاد ؟ ماذا تصنع بنفسك يا بني ؟ أجننت ؟ » .

قال لها وهو يبتسم : « تعالي يا أماه هنئيني » .

— بم أهنئك ؟ أبشفائك يا بني ؟

— بما هو خير من الشفاء .. بهذا اللحن الذي صنعته اليوم .

« تعالي أسمعك إياه » وقام إليها فأخذ بيدها وأجلسها بجانبه وأخذ

يدندن لها فلما فرغ من لحنه قال لها : « ألم أقل لك إن لي مستقبلا عظيما في الموسيقى ؟ » فما زادت على أن قالت له : « هداك الله يا بني » .

— هداك الله ؟ ألم يعجبك هذا الذى صنعته ؟

— وما علمي بهذه الأشياء يا فؤاد ؟

— صدقت .. سأذهب إلى الأستاذ مراد وأعرضه عليه .

ولم يأت الأصيل إلا وفؤاد واقف بجانب مراد السعيد ومراد جالس إلى البيانة يوقع عليها اللحن الذى صنعه فؤاد من النوتة التى أمامه وجعل يعيده كلما فرغ منه مرة بعد مرة حتى استخفه الطرب فقام إلى فؤاد فعانقه وهو يقول له : « ما كذب ظني فيك يا فؤاد . هذه باكورة مدهشة ! » .

وجلس فؤاد يقص على أستاذه ما جرى له في الأيام الثلاثة التى انقطع فيها عنه ومراد ينصت إليه بشوق وانتباه ثم نظر في النوتة وقال : « أتدرى ما اسم هذه القطعة يا فؤاد ؟ » . قال له فؤاد : « سمها أنت ما تحب » . قال مراد : فقد أسميتها « الحيرة » .

وظل مراد أياما وهو يوقع هذا اللحن مرة بعد مرة ولا يقضى العجب منه . لقد كان يتوسم في فؤاد بشائر النبوغ ولكنه لم يتوقع أن تكون أول قطعة له بهذه القوة الرائعة وهذا العمق العجيب . واستعرض الحادثة التى وقعت لفؤاد فتعجب من السبل الخفية التى يسلكها القدر والخطط العجيبة التى يرتجلها إذا ما شاء أن يقدح زناد عبقرية كامنة : ومن يدرى لعله ما يرتجلها بل يحكم التدبير لها ولكن الناس لا يعلمون !

نسى فؤاد في نشوة سروره بهذا الحدث الجديد وإعجاب أستاذه

البالغ ما شغل قلبه من الحيرة فى أمر إحسان ، فاستقبل يوم افتتاح المدرسة بصدر منشرح وأصغى إلى نصائح خاله فيما يتصل بجده والاهتمام بدروسه بما يدل على أنه تقبلها قبولا حسنا . ولكنه لم يكد يمضى له فى المدرسة يومان حتى شغل قلبه بأمر الفتاة الراقصة مرة أخرى واستبد به مزيج من الشوق إلى رؤيتها والرغبة فى الوقوف على حقيقتها .

فكان لا يأتى العصر حتى يخرج من بيته ويصير إلى شارع عماد الدين حيث يعمد إلى مقهى يواجه الصالة التى تعمل فيها إحسان فيتخذ له مجلسا على بابه يرصد الذين يدخلون الصالة والذين يخرجون منها من أعضاء الفرقة والعاملين فيها ، حتى إذا لمح إحسان مقبلة فى طريقها إلى الصالة قام فاعترضها ليكلمها فكانت الفتاة تزجره ولا تقف لتصغى إلى ما يقول ، وعندها أنه أحد الشبان الذين يعترضون للفتيات فيغازلونهن ويجرون وراءهن وأنه إنما أقدم على فعلته تلك حين صعد إلى لوجها وهى مع العمدة ليسترعى انتباهها ويجتذب اهتمامها . ولكن لما تكرر هذا الفعل منه بعد أن زجرته وأسمعته قبيح السب مرارا فلم ينته ورأت إصراره على ادعاء معرفتها من قبل وآنست من لهجته وانفعاله أنه يعنى ما يقول ، حاك فى صدرها أن ربما يكون مصابا عقله وخشيته على نفسها فعزمت على أن ترفع أمره إلى الشرطة فيكفوه عنها ويقطعوا دابره .

وأقبل ذات عشية فاعترضها على مدخل الصالة ليستوقفها ويكلمها فصاحت بأعلى صوتها زاعمة أنه حاول الاعتداء عليها ، فاجتمع الناس حوله ، وحضر أحد الشرطة فالتمست منه أن يقوده معها إلى قسم

البوليس . واتفق أن كان الكهل الذى عرف فؤادا فى الصالة حاضرا وقتئذ فحاول أن يفض المشكلة بالحسنى ويسترضى الراقصة لتنزل عن دعواها وتخلى سبيله ، ولكنها صممت على أن يقاد إلى القسم فما وسعه إلا أن يصحب فؤادا إليه عسى أن يشهد له هناك بكلمة تنفعه .

وتلعثم فؤاد بين يدى الضابط ولم يستطع أن يدفع عن نفسه التهمة التى وجهتها الراقصة إليه ، وكاد الضابط أن يثبتها جنحة ضده لولا أن الكهل تقدم نحوه واستأذنه فى أدب وكياسة أن يدلى بشهادتـه . فأصغى الضابط إليه وهو يقص عليه كل ما عرف من أمر هذا الشاب الوديع المستقيم الذى هزته الغيرة حين رأى جارته المسماة عليـه تحترف الرقص فى الصالات بدون علم أهلها المقيمين الآن فـى أسيوط . وهى تنكر أنها تعرفه ألبتة وهو يصر على أنها خطيبته . فقال له الضابط : « فما الحل ؟ » .

— الحل بسيط . تأمر الفتاة فتحضر شهادة ميلادها وأنا كفيل بأنه يتركها حين يعلم أنها غير الفتاة التى يقصد .

وقد استطاع الرجل بذلاقة لسانه ولطف مدخله أن يقنع الضابط بوجاهة رأيه لفض المشكلة على هذا النحو فوافق على هذا الاقتراح ولم يزده تلكؤ الفتاة عن الذهاب لإحضار شهادة ميلادها إلا إصرارا على ما أمرها به .

وانتظر فؤاد وصاحبه عند الضابط حتى عادت الفتاة وهى تتأفف زاعمة أنها تأخرت عن موعد عملها فى الصالة فلم يأبه الضابـط لشكواها ، وإنما مد يده لتناول شهادة الميلاد فجعل ينظر فيها وفى الفتاة ثم التفت إلى فؤاد قائلا :

— ما اسم الفتاة التى تزعم أنها خطيبتك ؟

— إحسان ناصر على ضياء الدين .

— أتعرف أين ولدت ؟

— نعم . فى منيل الروضة .

— انظر يا بنى ، هذه غير خطيبتك . هذه فتحية أحمد فرغلى من كفر الدوار .

فلم يكد فؤاد يصدق ما ترى عينه وهو ينظر فى شهادة الميلاد التى ناوله إياها الضابط . وصاحبه الكهل بجانبه ينظر فيها معه فقال له : « أرأيت يا فؤاد كيف ثبت لك أنها فتاة أخرى ؟ » .

قالت الفتاة تخاطب الرجل وقد كساها الغضب جمالا وزادها فى عين فؤاد شبها بإحسان : « إى والله قل لصاحبك هذا الشاطر يفتح عينيه جيدا ! » .

فضحك الضابط وقال لفؤد : « نعم افتح عينيك جيدا يا شاطر ! » .

وأدركت الفتاة النكتة التى يقصدها الضابط فابتسمت وقالت :« خير له أن يبحث عن حبيبتة الضائعة ! » .

فاستأنف الضابط نكتتة قائلا : « وماذا عليه يا شاطرة لو بحث عنها ؟ إنها والله لجديرة بالبحث والاهتمام » .

فابتسمت الفتاة ثانية ولحظها فؤاد فقال فى نفسه : إنها لابتسامة إحسان .

— والآن يا حضرة الضابط ؟ أنا مستعجلة .

— انتهت المسأله . يمكنك أن تنصرفى .

— ألا تكتب عليه مذكرة يتعهد فيها أن لا يتعرض لى فى طريقي مرة أخرى ؟

— كلا ، لا داعي لذلك . سيشغله عنك البحث عن حبيبته الضائعة . أليس كذلك يا فؤاد ؟

فابتسم فؤاد وكان قد بلغ الحياء منه مبلغه ولم يقل شيئا .

قال الرجل الكهل : « إن تعرض لك مرة أخرى فأنا المسئول عنه . اعتذر لها يا فؤاد عن خطئك » .

قال فؤاد وهو يغالب حياءه : « معذرة يا آنسة .. إنى آسف جدا لما وقع مني » .

وكأنما وقع من قلبها حياؤه وبراءة نظرته فأحست بالرثاء له فجعلت تنظر إليه .

قال الضابط : « ما هذا يا شاطرة ؟ كأنك تريدين أن تخطفيه من حبيبته الضائعة فنقع فى مشكلة أخرى ! » .

فنظرت إليه مقطبة الجبين وقال وقد أسبلت عينيها : « لا تخف يا حضرة الضابط فإن عيني لا تخطئان ! » .

قال لها : « أجل إن عينيك مصيبتان ! » .

فضحكت وقالت وهى تريد الانصراف : « لا داعى إذن لكتابة المذكرة .. أنا ذاهبة » .

قال لها : « على رسلك يا شاطرة . سأكتب مذكرة عليك حتى لا تخطفيه من حبيبته » .

— أهذا ضرورى يا حضرة الضابط ؟

— نعم ضرورى جدا .

ــ إذن فاكتبها ووافني بها فى الصالة لأوقعها لك !

وألقت نظرة على الساعة فى معصمها فقالت : « ويلى ! لقد تأخرت كثيرا » : وولت منصرفة .

وتهيأ الصاحبان للانصراف وهما يشكران الضابط على حسن صنيعه فنهض يصافحهما قائلا للرجل : « بل أنت المشكور على حسن رأيك » ثم قال لفؤاد : «وأنت يا بنى عليك بالتأنى فى أمورك وإياك والاندفاع .. ولا تنس المثل العامى القائل : إن الله يخلق من الشبه أربعين » .

١٤

أفاق فؤاد من حيرته فى أمر الراقصة ولكنه لم يصح من هذه الكأس إلا ليعل من كأس أخرى أقوى سورة وأطول خمارا يعلم الله وحده متى يفيق منها .

« خير له أن يبحث عن حبيبته الضائعة ! » كلمة أرسلتها الراقصة عفوا لتجيب بها على نكتة عابرة . ولكن صداها ما زال يرن فى قلب فؤاد فيثير الذكريات النائمة فى صدره : ذكريات رفيقة صباه وحبيبته المسماة كأنه صور إسرافيل آذن الموتى بالنشور فقاموا من أجداثهم ينسلون .

وأخذت إحسان ضياء الدين تتخطر فى فؤاده وتتمايل فى حلل زاهية الألوان وقد وشاها الخيال ونمنمها ما شاءت له قدرته على الاختراع والافتنان . وجعلت الصور البارزة التى علقت بذهنه منها تطل عليه من

حجب الماضى متلاحقة فى أوضاع مختلفة وأحوال متباينة وأسنان متفاوتة حتى تتم الدورة وتنتهى إلى ما ابتدأت به من صورتها يوم الوداع . ثم ماذا ؟ ثم يثب الخيال خمس سنوات أو تزيد فيقف به على صورة إحسان راقصة تتخلع على المسرح ثم صورتها تشكوه فى قسم البوليس حيث ينكشف له أنها فتاة أخرى غير إحسان فيخالجه فرح عظيم لبراءة إحسان من تلك الوصمة المندية ، وأسف شديد لأنه سوغ لنفسه حينا من الزمن أن يظن بها ذاك الظن الأثيم .

وعجبت أمه لما طرأ على ابنها فجأة من التعلق بإحسان والإكثار من ذكرها بدون سبب تعرفه . ها هو ذا يتحدث عنها بشوق ظاهر ويسألها لماذا انقطعت أخبار أسرتها ويستمليها رسالة إلى خالته سميرة ليلقيها فى البريد فلا يسعها إلا أن تجيبه إلى ما اقترح وهى تتعجب من هذا الطارىء الغريب . ولما أنشأت تلتمس تفسيرا لهذا الطارىء لم تجد أمامها إلا أن ابنها قد بلغ مبلغ الرجال فاستيقظ فيه الحنين إلى من يأمل أن تكون شريكة حياته . وكأنما أعداها ابنها فجعلت تحن هى أيضا إلى صديقتها أم إحسان وتذكر بالخير تلك الأيام الجميلة التى قضتها معها فى صداقة خالصة ومودة صافية .

ولئن كان فى الناس من يؤمن بصحة ما يقال من أن الذكرى، قد تقرب النازح فأجدر بأم فؤاد أن تكون من أشدهم إيمانا بهذه القالة بعد أن رأت شاهدا قويا لم يدع للشك فى صحتها إلى قلبها سبيلا . ألم تمل رسالتها إلى صديقتها يوم الخميس فجاءت ابنة صديقتها تزورها يوم الجمعة ؟

لقد دهشت زاهية حين رأت إحسان هبطت على غير رقبة لا تدرى

من أين ، فما ملكت أن تبكى من الفرح وجعلت تعانقها وتضمها إلى صدرها وتبلل خديها بدموعها .

أين أنت يا فؤاد لترى رفيقة صباك فى بيتك اليوم ؟

وجلستا تتباثان الشوق وتتقاصان أنباء ما جرى للأسرتين المتحابتين فى أسيوط والقاهرة منذ فرقت بينهما يد الأيام . وإن مجال القول للو سعة وإنهما لتودان أن تحيطا بكل ما يشوقهما من الأنباء فى أقصر ما يكون من الوقت كأنما تخشيان أن لا تواتيهما الفرصة لقضاء وطرهما وشفاء غلتهما من الحديث ، فعل الصديق يلقى صديقه الحبيب على فرط اشتياق وبعد طول فراق ولكن أين ! فى محطة سفر يوشك أن يبرحاها مفترقين فى دقائق معدودات !

ولم تكن إحسان على سفر ، فقد قدمت القاهرة لتقيم طويلا عند خالتها بالزمالك إذ التحقت بمدرسة الفنون الطرزية . ولكن هكذا كان شعورها حينئذ . كان قدومها منذ أسبوع وقد ودت أن تزور صديقة أمها قبل هذا اليوم فحالت مشاغل الالتحاق بالمدرسة دون ذلك .

وحلت ساعة الظهر ولما يعد فؤاد من مضطربه ، فأسفت إحسان لأنها لم تره وليس فى وسعها أن تنتظره بعد حتى يعود ، إذ انقضى الوقت الذى حددته لها خالتها لزيارة المنيل . ولم تحصل أم فؤاد من إلحاحها على إحسان بالبقاء إلا على موعد منها بتثنية الزيارة يوم الجمعة القادم .

وجاء فؤاد فلم يصدق ما تقول أمه !

— لا تمزحى يا أماه فما هذا أوان المزاح ولا هذا موضعه . إنى

متعب وإنى لجائع !

— هلم يا بنى أحضر لك الطعام حتى يثوب إليك عقلك . فهذه عادتك يطير صوابك حين تجوع .

— والله لا أذوق طعاما حتى تصدقينى القول .. أحقا جاءت إحسان هنا اليوم ؟

— نعم جاءت هنا اليوم . جاءت هنا اليوم . ماذا أصنع لتصدقنى ؟

— هأنت ذى تضحكين . إنما تمزحين معى .

— إنما يضحكنى إصرارك وعنادك .

— احلفى بالله أنك ما تمزحين .

— والله ما أنا بمازحة .

— لعلها فتاة أخرى سواها !

— فتاة أخرى سواها .. ماذا تقول يا بنى ؟

— أليس المثل العامى يقول : إن الله يخلق من الشبه أربعين ؟

— يظهر لى أنك أنت الذى تريد المزح معى .. سبحان الله ! أترانى لا أميز إحسان من غيرها ؟

— صفى لى ملابسها .. ما لون فستانها ؟ أتلبس فوق رأسها قبعة مائلة لجنب ؟

— عجبا ما معنى أسئلتك هذه ؟ .. هيه الآن فهمت !

— ماذا تعنين ؟

— لابد أنكما قد تقابلتما قبل اليوم .

— من ؟

— من ! أنت وإحسان ! لأمر ما جعلت تكثر من ذكرها فى هذه

الأيام كأنك اتفقت معها على تمثيل هذا الفصل لتتندرا به على . عجبا لإحسان ، ما أمكرها ! لقد تحادثنا طويلا فلم يبد منها ما ينم على أنها لقيتك من قبل وأنكما ائتمرتما بى لتضحكا على !

وسدى ما حاول فؤاد — وهو مع أمه على المائدة — أن يقنعها ببطلان زعمها هذا ، فقد تمسكت به تمسك العجوز تريد أن تثبت أن حيل الأحداث وألاعيبهم لا تجوز على مثلها لأنها بخير بعد ولما تبلغ سن الغفلة والهتر .

أما هو فقد زادت حيرته فى بادىء الأمر لهذا الذى تزعمه أمه مؤكدة جازمة ، ولكن إصرارها هذا على صواب زعمها لم يلبث أن حل العقدة التى تحير فيها فتحقق لديه أن أمه لم تكن مازحة وأن إحسان قد جاءت ذلك اليوم حقا وصدقا .

يا ويحه ما أسوأ حظه ! أى كوكب نحس قضى عليه ذلك اليوم بالخروج إلى حديقة الأورمان ليداعب بين أغصان أشجارها خيال إحسان الطائر ، بينا حقيقة هذا الخيال قد حطت فى بيته !

متى تأتى الجمعة القادمة ؟ وما أطول ساعات الانتظار فكيف بأيامه ! من لفؤاده بالصبر حتى تشرق شمس ذلك اليوم البعيد ؟ أما من سبيل إلى رؤية الشمس فى وجه إحسان قبل رؤية الشمس فى وجه ذلك اليوم ؟

« بلى إنى لأعرف بيت خالتها بالزمالك فلو وقفت لها صباح غد على محطة الترام من السابعة إلى الثامنة لرجوت أن أراها ساعة ذهابها إلى المدرسة ! » .

استراح فؤاد إلى هذا الرأى فنام عليه !

وصحا مع الطير فأخذ زينته وخرج قبل أن يدركه موعد الفطور فأدرك أول عربة إلى الجيزة ليثب منها إلى أول ترام ينطلق نحـو الزمالك . ونزل حيث أراد فوقف على المحطة وجعل يذرعها جيئة وذهابا وهو يتلفت يمينا وشمالا يتوقع فى كل لحظة أن يطلع عليه ذلك الوجه الجميل . والساعة في يده لا يكاد يرفع عنها طرفه ـــ هذه الساعة الذهبية التى أهداها له خاله حين نجح فى امتحان الكفاءة ، والتى كان يستثقل حملها معه بله لفها على معصمه ، وإن حملها يوما نسيها بدون غذاء حتى تهدأ أنفاسها ـــ أصبحت اليوم عنده شيئا ذا بال .

ورفع فؤاد طرفه عن الدقيقة الثالثة والعشرين بعد السابعة فإذا إحسان تظهر مقبلة من شارعها ومحفظة الكتب فى يدها حتى بلغت المحطة فنظرت إلى الشاب الواقف أمامها فى حالة تنم عن اضطراب نفسه فلم تعرفه ، فوقفت على الرصيف بعيدا منه . أما هو فعرفها للوهلة الأولى ولكنه لم يجرؤ على إدامة اللحظ إليها فخفض بصره إلى الأرض وجعل يسارقها النظر حينا بعد حين .

وحدثته نفسه أن يتقدم نحوها فيحييها ويعرفها بنفسه . ولكـن الاضطراب الذى استولى عليه قيد رجليه حيث هو وأوهمه أنها قد تنكره وتغلظ له فى الكلام ويعلو صوتها فيجمع الناس عليه ويساق إلى القسم ليمثل أمام ضابط قد لا يكون مثل ذلك الضابط الظريف ، وليس عنده ذاك الصاحب الكهل ليحامى عنه . وكان يتمنى أن يبطىء الترام ريثما يجمع شعاع نفسه ليقدم على تحيتها وكلامها ، ولكنه لما تصور ما وقع له مع الراقصة زاد اضطرابه وارتباكه وتصبب العرق من جبينه فتمنى أن يسرع مجىء الترام لينقذه من هذا الموقف العصيب . وخطر

له أن يبرح المحطة ويمضى لسبيله لولا أنه توهم أن ذلك قد يثير فى نفسها الريبة من موقفه هناك . وبقى فؤاد على هذا الحال حتى جاء الترام فخلصه من ورطته .

لم يبق أمام فؤاد إلا أن ينتظر حتى تزوره هى يوم الجمعة ، ويشتد خفوق قلبه كلما تذكر أن هذه المخلوقة الجميلة الغالية التى ود الدنو منها لتحيتها فلم يقدر له ذلك فى الشارع ستجىء إليه فى بيته ويحادثها وتحادثه بمعزل عن عيون الناس إلا عين والدته الرؤوم .

وأصبح يوم الجمعة المرتقب بعد دهر طويل فى دنيا فؤاد فاعتكف بالبيت وانتظر ثم انتظر وهو يتشاغل بتقليب كتبه ودفاتره ليكتم عن أمه قلقه وفروغ صبره حتى جاء الظهر ولما تأت إحسان فصرح لأمه بما فى قلبه ، فقالت له لعلها تجىء بعد الظهر فبقى ينتظر وينتظر حتى جاء وقت العصر وقد كاد ييأس ، فكف عن التطلع من الشباك وإذا بقرع لطيف على الباب أحس فؤاد كأن القرع على قلبه فسبق أمه إلى الباب ففتحه فإذا هى إحسان !

ـــ فؤاد ! أهذا أنت يا فؤاد ؟ لقد كبرت كثيرا حتى لو رأيتك فى مكان آخر لما عرفتك !

وتلعثم فؤاد وهو ينظر إليها قائلا : « ولكنى لو رأيتك فى أى مكان لعرفتك يا إحسان » .

ـــ ألا تعلمين يا بنتى أنك حبست فؤادا فى المنزل اليوم انتظارا لمجيئك ؟ .

ـــ آسفة يا خالتى لعدم مجيئى كما وعدتك فى الصباح ، فقد كان عند خالتى اليوم ضيوف .

وجلس الثلاثة وتشقق الحديث بينهم فكانوا يتذاكرون الماضي ويتناولون الحاضر وربما مسوا المستقبل مسا رقيقا . وكان فؤاد يحادثها في تحفظ وحياء ولا يطيق أن يملأ عينيه من وجهها . أما هي فقد كانت تخاطبه في سماحة وسذاجة كأنها تخاطب أخاها ولا تتحرج أن تدلي برأيها فيما تغير من سمات وجهه وبدنه كأن تقول له : « قد خف لحم شدقك وغلظ صوتك ، وخيل لي أن فمك اتسع ، وكان وجهك نظيفا أملس ، أما اليوم فإن الموسى لا تستطيع أن تخفي منابت الشعر في شاربك وعارضيك . لشد ما تبدلت يا فؤاد ! » تقول هذا وتضحك فتضحك أم فؤاد معها .

وكان بوده أن يقول لها : « وأنت لشد ما تبدلت أيضا : لم يكن لعينيك كذا وكذا ، ولم يكن لصدرك كذا وكذا ، وكان هذا كذا فصار كذا » وهلم جرا ، ولكن حياءه يمنعه عن مثل هذا القول .

ومرت الأيام وإحسان تتعهد أم فؤاد بالزيارة فيزداد تعلقها بفؤاد حتى صارت تنتظر أيام الجمع بلهفة وشوق . وتحولت الآية بينهما فصار هو أميل إلى التبسط والتهجم معها وصارت هي أدنى إلى التحفظ والتحشم معه . وإن عين الأم لعين رؤوم ولكنها فيما يبطنان من سرهما عين رقيب على كل حال . والحب أثر وحشي لا يقنع بالجلوة دون الخلوة ، ولا يرضيه الشيوع دون الاستئثار : وعينه كعين البوم يؤذيها النور وتستريح إلى الظلام .

وتواعدت عيونهما ذات مرة في البيت . وسبقها فؤاد إلى الجيزة حيث ركبا الترام معا نحو الزمالك ، واقترح عليها أن ينزلا بحديقة الحيوان ليتنزها فيها قليلا فتمنعت وألح عليها فاعتذرت بضيق الوقت

فلم يتركها حتى واعدته أن توافيه صباح الجمعة القادمة فى حديقة الحيوان .

وبرت إحسان بوعدها وصارت بعد ذلك تزور أم فؤاد تارة وتواعد فؤادا فى الحدائق العامة تارة أخرى .

وكان فؤاد يحدث أستاذه مراد السعيد عن هذه المقابلات السعيدة ويصورها له بألوان زاهية ويجملها بنقوش وتهاويل ، ويصف له أثرها فى نفسه بلغة المحب الشاعر ، فيصغى إليه أستاذه إصغاء الأب الرحيم إلى طفله الصغير وهو يقص عليه مغامراته الوهمية ، حتى إذا فرغ من حديثه قال له : « وما نفع هذا كله إذا لم يوح إليك قطعة جديدة ؟ » وكان كثيرا ما يقول له : « إنك يا فؤاد بحاجة إلى ألم الحرمان ليصهر نبوغك ويحملك على الإفصاح » . فيضحك فؤاد ولا يقول شيئا .

حتى جاءه مساء جمعة فقدم إليه لحنا جديدا أسماه « الانتظار » . وكانت إحسان قد تخلفت عن موعدها ذلك اليوم فلم توافه فى الحديقة التى اتفقا عليها فرجع إلى بيته كسيفا ووضع هذا اللحن . ولما اطلع عليه مراد أعجب به ووقعه بنفسه على البيانة ثم أمر فؤادا فعزفه على العود فطرب له طربا شديدا وقال له : « ألم أقل لك يا فؤاد إنك بحاجة إلى الألم » .

وكان مراد السعيد على اهتمامه بتربية فؤاد الموسيقية ما يفتأ يحثه على القيام بواجباته المدرسية ويلومه على الإخلال بها . ويبين له أن رضا أهله عنه أعون له على بلوغ مطمحه من إسخاطهم ومنابذتهم فيعده فؤاد خيرا ، ويؤكد له بأنه لابد ناجح بإذن الله ، وأن فى العام الدراسى فسحة مديدة بعد . وكذلك كان يصنع مع خاله فكلما عنفه

هذا على تقصيره وإهماله استعتبه وأظهر له الندم على ما فات وعاهده على استئناف الجد والمثابرة من يومئذ ، ولكنه لا يفعل شيئا ، حتى انتهت السنة وسقط فؤاد فى الامتحان .

ورأى الشيخ عبد الله البرقاوى أن ابن أخته قد كبر عن التهديد فأحب أن يتخذ معه سبيل الإقناع وقال له « يا بنى إنك الآن قد صرت رجلا تفهم مصلحتك وتعرف ما لك وما عليك . وإنى إنما أهيىء مستقبلك وأريد أن تكون رجلا نافعا لنفسك ولأهلك ، ولكننى لا أجد منك أذنا صاغية . وكنت خليقا أن أيأس منك ولكنى سأعطيك فرصة أخيرة لتتلافى أمرك . فاجتهد لتنجح فى الدور الثانى فتأخذ البكالوريا . فإن نجحت أدخلتك فى التعليم العالى لتكون طبيبا أو مهندسا أو ما شئت أن تكون . وإلا فقد قمت بواجبى نحوك فلا تلومن إلا نفسك » .

وتأثر فؤاد بهذا القول وبدا عليه كأنه عازم على أن يحقق رغبة خاله . وتحقيقها يسير عليه إن شاء لا يكلفه إلا قليلا من الإرادة والعزم وشيئا من قهر النفس .

١٥

أما إحسان فقد نجحت فى امتحانها ونقلت إلى الفرقة الثانية بالمدرسة وكان فى النية أن تقضى أشهر العطلة فى أسيوط بجوار والدتها ، فكانت إذا ذكرت ذلك شعرت بالفرح لشدة شوقها إلى أمها التى لم تجرب فراقها من قبل ، وإن كانت لا تميل إلى لقاء خالها الذى

لا تشعر نحوه إلا بالنفور والخوف . ولكنها تشعر أيضا بالأسف لفراق القاهرة حيث طاب لها المقام فى بيت خالتها التى أحسنت معاملتها ورفقت بها وأعطتها قسطا كبيرا من الحرية تستطيع به أن تخرج من البيت فى أى وقت تشاء فتزور أم فؤاد وتتنزه مع فؤاد فى حدائق العاصمة .

وبينا هى تهيىء نفسها للسفر إذا بخالها ينقل إلى القاهرة فقدمها مع أسرته فسكنوا منزلا فى حى الروضة ، فتركت إحسان بيت خالتها وانضمت إلى أسرتها .

ولما علمت زاهية بذلك ذهبت تزورهم فكان سرور الصديقتين بلقائهما عظيما . وودت زاهية لو سكنوا بجوارها فى المنيل حتى يسهل التزوار بينهما فقالت لها سميرة إن أخاها محمودا آثر سكنى الروضة ليسر مواصلاتها ، والمسافة بينها وبين المنيل قريبة على كل حال . ولما تذاكرتا أمر ولديهما لم يسع زاهية إلا أن تهنىء صديقتها بنجاح ابنتها وتأسف لسقوط ابنها هى فى الدور الأول وتشكو مما أولع به من الموسيقى التى شغلته عن دروسه ولكنها ترجو الله أن ينجح فؤاد فى الدور الثانى حتى يلحق بإحدى كليات الجامعة ، فتؤمن سميرة على دعائها وتدعو الله أن يحقق لها أمنيتها .

وتحدثها زاهية بأن فؤادا مشغول القلب بإحسان يحبها ولا يصبر عن رؤيتها وقد كان من عادته أن يتغيب يوم الجمعة عن البيت ولكنه صار يلزمه ويرابط فيه منذ قدمت إحسان وصارت تزورهم كل جمعة ، فتبتسم سميرة وتقول لها إن ابنتها أيضا مشغولة به .

واتصلت الزيارات بين الصديقتين فما يمضى أسبوع دون أن تزور

إحداهما الأخرى مرة أو مرتين . وكانت إحسان ترافق أمها في أغلب زياراتها لأم فؤاد . واستمر الحبيبان يسترقان نزهاتهما الخلوية كعادتهما إلا أنها قلت قليلا عن ذى قبل . وطالما اشتاق فؤاد أن يستمتع بنزهة ليلية مع صاحبته فيركب بها زورقا على النيل فى ضوء القمر أو يستصحبها إلى أحد مسارح التمثيل أو إحدى دور السينما ، فكانت إذا اقترح عليها ذلك تعتذر بخوفها من خالها . حتى اتفق يوما أن خالها دعى مع زوجته ليقضيا أياما عند أهلها فى إحدى القرى التابعة لبنها فكانت هذه الفرصة لتحقيق ما يصبو إليه فؤاد .

ولم تر أم إحسان التى بقيت وحدها مع ابنتها فى المنزل بأسا فى أن تأذن لها بالذهاب إلى السينما مع فؤاد لثقتها به فهى تعده كابنها وتعده كذلك خطيب ابنتها المنتظر . وخرجا معا قبيل الأصيل يدها فى يده حتى ركبا إلى قصر النيل ونزلا بأحد محال الحلوى هناك حيث قضيا وقتا فى الحديث الشهى .

ولما خرجا للتوجه إلى السينما وجدا أن فى الوقت فسحة بعد فرأيا أن يتمشيا قليلا على جسر إسماعيل الجميل . وكان الجسر برصيفيه يموج بأسراب الرجال والنساء والفتيان والفتيات يقطعونه جيئة وذهابا كل فى فلكه يسبح ، فاجتازاه متمهلين حتى بلغا شط الجزيرة فواصلا مشيهما الهادىء تحت الأشجار الضخمة يساحلان النيل ويبتعدان عن بهرة الناس ، وقد صبغ الأصيل الدنيا بلون الذهب وخفت سورة الحر أو زالت وبدأ النسيم العليل يتسلل إلى الخدود فيطبع عليها قبلات النهر .

وعز عليهما أن يدعا هذا الجمال وهذا الروح وهذا الهدوء الشامل

وهذه الخلوة الممتعة ليذهبا إلى حيث الضجيج والحركة والزحام فيشهدا شريطا سينمائيا أو قصة تمثيلية ، وبين يديهما قصة الطبيعة في أسلوبها الأعلى يشهدانها بعيونهما وقلوبهما وأرواحهما ويندمجان فيها اندماجا !

وأقبل الليل يسحب ذيوله على الكون النشوان ، وطلع القمر فسكب أشعته على مياه النهر ، وأخذت الضفادع تنق كأنها تحتفل بليلة عرس . فشعر الحبيبان بنشوة نسيا فيها الدنيا وظلا يمشيان على غير هدى ويقفان الحين بعد الحين فيعتمدان على حاجز النهر أو يستندان إلى جذع إحدى الأشجار ، ولم يوقظهما من نشوتهما إلا وصولهما إلى الجسر الأعمى .

خطر لفؤاد حينئذ خاطر فجذب يد صاحبته وانطلق بها حتى أدرك بها تراما سائرا نحو الجيزة . وفيها نزلا فاستقلا عربة إلي المنيل ، وظنت إحسان أن صاحبها يريد أن ينزلها بالروضة ليوصلها إلى بيتها إذ لم يخبرها بما عزم عليه إلا حين نزل بها في المنيل فإذا هو يريد أن يركب بها زورقا على النيل ليحقق أمنية طالما حلم بها .

وسألته عن الوقت وهو يلتمس الزورق ليستأجره للنزهة فقال لها « لا يزال في الوقت سعة » . وأخذ الملاح يعمل مجدافيه اللاعبين وإحسان مشفقة من اليم وفؤاد يطوقها بذارعيه كأنه يقول لها لا تخافى فتميل بجسمها عليه لائذة به كأنها تقول له : لا خوف علي ما دمت معى .

وأخذا بسحر الموقف وروعة المشهد فلم يتكلما إلا قليلا ، وما تكلما حين تكلما إلا همسا كهمس النسيم الذى يداعب خصلات

شعرهما ، وهمس الماء الذى يشقه الزورق من تحتهما ، وهمس الليل الساجى ، وهمس القمر وهمس النجوم !

ورجع فؤاد — بعد أن أوصلها إلى بيتها — يمشى مترنحا فى الشارع كأنه ثمل مخمور يخيل إليه أن ما كان الساعة إن هو إلا حلم . بل يخيل إليه أنه ما زال يحلم ، فقد رق حجاب ما بين الحقيقة والخيال عنده فاختلطت حدودهما : حتى قادته قدماه أمام بيت مراد السعيد فلم يجد فى البيت نورا فظنه قد نام فلم يشأ أن يزعجه وتحرك لينصرف . ولكن مرادا لم يكن نائما إذ ذاك بل كان جالسا فى الشرفة يفكر ويتأمل ، فلمح شخص فؤاد فعرفه ونزل يفتح له باب السور ويعود به إلى الشرفة .

— ما أخر مجيئك الليلة يا فؤاد ؟ لقد ظننت أنك لا تجىء .

— ماذا أقول لك يا أستاذ ؟ بأى لسان أعبر لك عما فى قلبى ؟ آه يا ليتنى شاعر .

— ماذا حدث ؟

— ألم تشعر بما حدث ؟ ألم يقل لك هذا الليل ؟ ألم يخبرك القمر والنجوم ؟ . وهذا النهر ألم يحدثك بشىء ؟ .

فضحك مراد وقال له : « بلى قد حدثونى أنك مجنون ! » .

— نعم أنا مجنون ولكننى — وا أسفاه — لست بشاعر .

— ماذا تصنع بالشعر ؟

— لأصف ما جرى الليلة .. أرسل هذا الفيض الذى يزدحم فى قلبى !

— ليس بينك وبين الشاعر إلا اختلاف الأداة، فصور شعورك بأداتك



وظلا يمشيان على غير هدى ويقفان الحين بعد الحين

فيعتمدان على حاجز النهر أو يستندان إلى جذع إحدى الأشجار

ولا تتمن ما ليس فى يدك .

ـــ أبالأداة البكماء تريد أن أصوره ؟

ـــ كلا بل بالأداة الناطقة بكل لسان .. بلغة الطبيعة التى يفهمها كل كائن حى .. بالموسيقى يا فؤاد .

ـــ الموسيقى لا تحدد الموصوف كالشعر .

ـــ لأنها أوسع من الشعر وأوسع من الموصوف . ولو كانت ضيقة كالشعر لفهمها القليل ولم يفهمها الناس كافة .

ـــ ما أحسب الناس جميعا يفهمونها كما يفهم بعضهم الشعر .

ـــ لا يا فؤاد بل يفهمونها جميعا من حيث يدرون أو لا يدرون .

وأخذ فؤاد يقص على مراد ما جرى وهو يشكو من قصور لسانه عن تصوير ما يريد .

وما انتهى بعد من حديثه حين قال له مراد : « حسبك يا فؤاد .. قم الآن فانصرف إلى بيتك » .

ـــ أتريد أن تنام الآن ؟ ألا تسمع بقية حديثى ؟

ـــ لا . لا أريد أن أنام الآن ولا أريد أن أسمع بقية حديثك ولا أريد أن أرى لك وجها إلا أن تأتينى بلحن جديد .

سكت فؤاد قليلا ثم قال له وهو يبتسم : « سآتيك بما تحب ولكن اسمع الآن بقية حديثى » .

فقال له مراد بلهجة صارمة وعلى وجهه دلائل الجهد : « لا والله لا أسمعه منك إلا باللغة التى أفهمها ويفهمها كل إنسان » .

١٦

أقبل فؤاد على مراد السعيد بعد غيبة أيام وفي يده نوتة مكتوبة ، فسأله مراد : « أهذا اللحن الجديد الذى عملته ؟ »

قال فؤاد : « نعم هو على وشك أن يتم وما أتممته بعد » .

— ففيم إذن جئتنى قبل أن تكمله ؟

— إنما أردت أن أجربه على البيانة لأرى وقعه وسأكمله الليلة حتما . فهل تأذن لى فى عزفه ؟

سكت مراد السعيد قليلا ثم قال له : « هلم فاعزفه » .

ودخلا غرفة البيانة وجلس فؤاد يعزف تارة ويجيل قلمه فى النوتة بالتبديل والتعديل تارة أخرى . ومراد ينصت إلى عزفه ويتمايل طربا ووجدا ، فما راعه إلا فؤاد ينهض عن البيانة ويستأذن للانصراف .

— إلى أين يا فؤاد ؟ ألا تستمر فى عزفك فإنى لم أرتو بعد من هذا اللحن ؟ إنه للحن مسكر .

— سأعود إليك الليلة وقد أكملته .

— ما أحسب أنه ينقصه شىء إلا أن تدرب يديك على توقيعه .

— بل ينقصه شىء يسير .

— فى وسعك أن تتمه هنا وعندك الكمان تستعين به أو العود إن شئت . وإن اخترت أن تخلو بنفسك تركتك وحدك حتى تكمله .

— شكرا لك يا أستاذى . بل ائذن لى أن أكمله على الزورق ومعى إحسان ، لقد تواعدنا اليوم أن نثنى ليلة النهر .

ــ ويل لك أما يزال خالها غائبا ؟

ــ نعم .. لا أعاده الله !

ــ وهل أذنت أمها أن تذهب بها إلى السينما مرة ثانية ولما تمض على المرة الأولى إلا ليلتان ؟

ــ قلت لها إننا سنشهد الليلة حفلة تمثيل في الأوبرا . وهي تعلم أننا ننتهب الفرصة قبل مجيء العذول الثقيل !

ونظر مراد في ساعته فقال : « الساعة الآن سبع فكأنك استأذنت لشهود الحفلة الثانية ؟ » .

ــ نعم ، ماذا أصنع بالحفلة الأولى التي تنتهي في الساعة التاسعة ؟ .

ــ فمتى تأتيني إذن ؟

ــ بعد الثانية عشرة بالطبع ، أم تريد أن تنام ؟ إذن آتيك صباح الغد .

ــ كلا ، بل لابد أن تأتيني الليلة ، فلن تنام لي عين قبل أن أراك .

وطوى فؤاد النوتة ليضعها في جيبه فقال له مراد : « لو كتبت لي منها نسخة لأتلهى بعزفها ريثما تعود » .

ــ بل خذ هذه لا حاجة بي إليها فإني أحفظها .

خرج فؤاد فاتفق مع أحد الملاحين ليؤجره زورقه من التاسعة إلى الثانية عشرة ونقده الأجر ثم انطلق إلى بيته فغسل وجهه وأصلح هندامه وأخذ مفتاح البيت معه لئلا يزعج أمه وقت مجيئه . وخرج بعد أن تمنت له أمه ليلة سعيدة وأوصته أن لا يتأخر في المجيء وحملته سلامها لخالته أم إحسان .

ودقت الساعة الثامنة وفؤاد فى بيت إحسان وهى تنتظره قد لبست زينتها وأخذت معطفها في يدها فودعا أمها وهى توصيهما بمثل ما أوصت أم فؤاد .

وخرجا يمشيان على مهلهما وهو يحدثها عن لحنه الجديد واستحسان مراد السعيد له . وكان قد حدثها كثيرا عنه وهى دائما تستزيده من أخبار هذا الرجل العجيب .

ولما وصلا إلى حيث الزورق تقدمها إليه ثم أعانها على النزول به فأجلسها إلى جانبه وأخذ المجداف وقال للزورقى الواقف على البر ادفع !

قالت له : « ألا يركب الملاح معنا ؟ » .

فأسر إليها قائلا : « لا داعى إليه الليلة . نريد أن نكون وحدنا وسينتظرنا هو فى كوخه » .

واندفع الزورق فى عرض اليم فأداره فؤاد صوب جسر عباس وأخذ يجدف بقوة كمن يريد أن يهرب بالجوهرة التى ظفر بها بعيدا عن الناس ما استطاع . وقد اختار من حيث لا يشعر السير ضد التيار كأنه بذلك يتحدى القوى جميعا إذا شاءت أن تحول بينه وبين حبيبته !

— ألا تخشى يا فؤاد أن ينقلب الزورق بنا ؟ .

— لا تقولى هذا يا حبيبتى فإن الله أكرم من أن يحرم الدنيا جمالك . ليت شعرى ماذا يبقى فيها بعدك ؟

— فى الدنيا ألوف النساء الجميلات .

— نعم ولكن ليس فيهن مثلك !

— والراقصة التى شهدتها فى الكازينة ألم تقل لى إنها مثلى ؟ .

— إن فيها شبها يسيرا منك وليست مثلك .

— لو لم تكن مثلى لما ظننتها إياى .

— إنما ظننتها إياك حين لم يكن فى ذهنى إلا إحسان الصغيرة قبل أن تنضج وتصير إلى ما هى عليه الآن من هذا الجمال الفريد النادر . أما وقد رأيتك يا إحسان اليوم فمحال أن يشبه لى بك من أحد سواك من نساء العالمين !

—ولكن الراقصة كانت جميلة لا شك فى عينك .

— ما جملت فى عينى إلا لأنها ذكرتنى إياك بذلك الشبه اليسير .

— بيد أنك همت بها حبا وتقطعت أنفاسك خلفها حتى انتهت بك إلى قسم البوليس .

— ما همت بها على الحقيقة وإنما همت بك فيها . فما كان مثلى إذ ذاك إلا مثل الوثنى الشقى أخطأه لشقوته وجه الله فجعل يعبد ما استعظمه من الجماد والنبات والحيوان .

وكان الزورق قد جاز جسر عباس حين أرسل فؤاد مجدافيه وسيبه يتمايل على متن الماء كأنه يقول « هأنذا قد ملكت الحبيبة فلا أخشى أن ينتزعها منى أحد ! »

وظل الحبيبان برهة صامتين ينظر أحدهما إلى الآخر بعيون حالمة إلى أن قالت إحسان وهى تشير بيدها إلى جهة البيوت التى فى الروضة : « أتدرى يا فؤاد أننا الآن قريبان جدا من بيتنا . ترى ماذا تصنع أمى الآن ؟ » .

— لعلها أوت إلى فراشها الآن لتنام .

— كلا لن يأتيها النوم قبل أن أعود إليها .

وأحس فؤاد أنه لم يزل قريبا من الناس وأومضت فى خاطره صورة خالها فى سرعة البرق .

والتفت إلى شاطىء الروضة فراعه — كأنما لم يعلم بهذا من قبل — أن يرى رصيفه عامرا بالمتمشين والمتمشيات يجيئون ويذهبون ، وعلى حاجز الرصيف قوم جالسون مثنى وثلاث ورباع . فقال فى نفسه « ماذا صنعت إذن ؟ وهربت من الناس لأقع فى غمارهم ! » .

ولم يلبث أن أدار الزورق فجرى صوب الشمال فى سهولة وانسياب لمواتاة التيار له حتى مرق من تحت الجسر ، فجعلا ينظران إلى أنوار السيارات وقطر الترام وهى تعبره مشرقة ومغربة حتى ابتعدا عنه فأراح فؤاد مجدافيه اللاعبين . وأرسل الزورق هائما على وجهه يترجح فى اليم كأنه مهد توأمين صغيرين تهزه أمهما الرؤوم مهدهدة إياهما ليناما . !

وأحس فؤاد بالحنين إلى الترنم ليجاوب موسيقى السماء التى تساقط أنغامها فى أساكيب ضوء القمر وليسارق موسيقى الأرض التى يجيش بها صدر النهر فيرفعها صلوات حارة إلى السماء !

قال : « آأغنيك اللحن الجديد يا إحسان ؟ » .

فأومأت إليه برأسها أن افعل .

وطفق الموسيقى النشوان يترنم باللحن فى صوت شجى هادر . فخيل إلى حبيبته النشوى أن أشعة القمر المتماوجة على ظهر الماء ترقص على ذاك اللحن أو أنها أنامل من نور تعزف ألحانا من نور !

وأخذ فؤاد يعيد اللحن مرة بعد مرة فى طبقات مختلفة وأهازيج شتى ، فشعرت بالرغبة فى محاكاته فجعلت تتابعه بصوتها المرن الرقيق

في تردد واحتراس كأنها تخشى أن تعدل باللحن عن وجهه ، فأومأ إليها يشجعها على الاستمرار في متابعته فأمسكت .

قال لها : استمرى .

قالت : أخشى أن أفسده .

قال لها : أتذكرين .. ؟

فبادرته قائلة : نعم أذكر ..

ــ ماذا ؟

ــ أيام المدرسة الأولية إذ كنت تقف أمامنا بجانب مدرسة الأناشيد تغنى لنا النشيد بصوتك الجميل فنحاول تقليدك . ألست تريد أن تذكرنى بهذا يا فؤاد ؟

ــ والله ما أردت غيره .. سبحان الله كيف عرفت ذلك يا إحسان ؟

ــ لقد جال هذا الخاطر فى قلبى كما جال فى قلبك .

ــ لعلنا الليلة نشعر بقلب واحد !

ــ فحذار إذن أن يكون فى قلبك موضع لسواى !

ــ معاذ ثغرك هذا الباسم أبدا ومعاذ جبينك هذا العابس أبدا أن يتسم قلبى لسواك ويهش لغير محياك !

ــ أتذكر يا فؤاد ... ؟

ــ إذ كنت تتطاولين فى الفصل معجبة بصوت زميلك الصغير ؟

فضحكت قائلة : « نعم ، ما عدوت ما فى نفسى » .

قال لها : « فاحذرى إذن مما حذرتنى منه ! »

فعقدت حاجبيها مقطبة وقالت : « أف لك يا فؤاد . أما تستحى أن تشك أنى لك ؟ » .

قال لها يترضاها : « لا والله يا حبيبتي ما أشك في حبك لي . ولكنى يملكني الخوف أحيانا أن تقسمي لغيرى » .

— ما وجه خوفك هذا وأنت تعلم أن أمي لن ترضى أبدا أن أقسم لسواك ؟

وصمت الحبيبان برهة لا يدرى هو ولا تدرى هي كم كان أمدها ، غير أن الحنين إلى الترنم ما لبث بعدها أن عاودهما . فانطلق اللحن من فم فؤاد عذبا شجيا يعلو به صوته شيئا فشيئا حتى خيل إلى إحسان أنه يملأ الوادى كله بأرضه وسمائه . وما لبثت أن مالت برأسها على صدره فجعل يفسح لها مترفقا بها حتى مدت ساقيها في الزورق ووضعت رأسها مستلقية على حجره وتركها تشدو باللحن وحدها وهو يجيل أنامله في خصلات شعرها وعيناه في عينيها فكأنه يلعب ببنانه على أوتار عود في حجره يترنم !

ثم أخذ الصوت يتناعس في فمها حتى نام ! وصحا صوت صاحبها في هدأة الليل فصفقت له مياه النهر ورجعه شاطئاه . وانتشى فؤاد فنسي ما حوله حتى توهم أن صوتا آخر يتابعه غير صوت حبيبته الناعسة في حجره ، خافتا في أول الأمر كأنه همس يأتي من بعيد ، ثم أخذ يتضح له فإذا هو أبيات من الشعر على قد اللحن تسلك سمعه إلى قلبه في لطف ويسر حتى كأنما يسمعها قلبه . وشغلته النشوة والطرب عن التفكر في مصدر ذلك الصوت الغريب ، فاستمر يدندن بلحنه والصوت يتابعه بأبيات شعره كلما انتهى إلى آخرها أعادها من أولها حتى وعي فؤاد معظمها فوقف عن الدندنة فوقف الصوت معه ، واستأنفها فعاد الصوت يتابعه فشعر عندئذ بقشعريرة من الخوف رجف

لها قلبه ، ونظر إلى إحسان فوجدها ساكنة مطمئنة لا يبدو عليها اضطراب ولا خوف .

قالت : « فيم سكت يا فؤاد ؟ يا لها من أبيات رائعة ! ؟ »

ــ أسمعتها يا إحسان ؟

ــ كيف لا ؟ أتظنني غفوت فلم أسمعها ؟ إنما طربت لسماعها فسكنت جوارحي واسترخت عيناى .

ــ ممن سمعتها ؟

ــ عجبا لسؤالك هذا . سمعتها طبعا منك .

ــ مني أنا ؟

ــ ماذا بك يا حبيبي ؟ إنك تخيفني بسؤالك هذا .

فعجب فؤاد واشتد خوفه ولكنه تماسك وتجلد خشية أن يعديها بخوفه فيطير صوابها إذا قال لها إن الصوت ليس بصوته وإنما هو صوت غريب . وما لبث أن داخله الشك أيضا فارتاب فيما سمع . وبدا له أن يختبر الأمر وشجعه على ذلك سكون إحسان واطمئنانها وإلحاحها عليه أن يغني الأبيات ثانية وشوقه أيضا أن يعي الأبيات كلها ويحفظها ، وتردد غير طويل ثم ارتفع صوته باللحن فإذا صوت يتابعه بأبيات الشعر وإذا فؤاد ينسى أنه يختبر أمرا ليرى مبلغ اليقين فيه ، فاندفع يغني الأبيات كما يغنيها ذلك الصوت وإذا الصوتان يتحدان كأنهما صوت واحد ، وإذا إحسان تصغي ويخيل إليها أن الكون كله يصغي معها إلى فؤاد وهو يغني كأحسن ما غنى قط .

ليلـــةُ النهـــر دُرَّةُ العمـــرِ
ساهِـــرُ البـــدرِ وحـــدَهُ يـــدرِى بالـــذى كانـــا !
فى حِمى النهـرِ زَوْرقٌ يسرِى
يحمـــلُ اثنيـــنِ مُسْتَهَامَيـــنِ لِلهـوَى دانـــا !
حبيبان صريعان منِ الحبُّ
يـــقُصَّان علـــى الصمت حـــديثَ القـــلب للقـــلبِ !
ليلة النهر .... الخ
ما علـى الدَّهـرِ بعـدُ مـــنْ وزرِ
عذبـــةُ الثَّغـــرِ ليلـــةَ النهـــرِ قلبُهـــا لانـــا !
قدُّهـــا نشوانْ جفنهـــا وسنـــانْ
مـــا أُحَيْلاَهـــا مـــن حُميَّاهـــا بتُّ نشوانـــا !
كأنَّ البسمةَ الحُلوة فى فيها
حَبـابُ الخمـر إذ تطفـــو علـــى الكـأس دراريهـــا
ليلة النهر .... الخ
المُنـــى شَتـــى أقبـــلتْ حتـــى
لـــم نـــعِ الوقتـــا ظـــنٌّ مـــا شِئتـــا جُـــنَّ قلبانـــا !
يخبـــطُ اليمَّـــا زورقٌ أعمـــى
مـــا لـــه هَـــادِى لا ولا حـــادِى غيـــرُ نجوانـــا !
إذا مال بهِ جنبٌ سما جنبٌ
تُرى خفَّت به النشوة أو ناءَ به الـحبٌّ
ليلة النهر .... الخ

لیس فی الدنیا غیرَنا أحیا
قطُّ لم یخلقْ ما سوی الزورقْ فهو دنیانا !
فیهِ ما نخشی فیهِ ما نرجو
ما عسی یبقی إنْ طوی اللجُّ فُلكنا الآنا !
تُری من بعدنا تطلعُ یا بدرُ ؟
وتسجو أنت یا لیلُ ؟ وتجری أنتَ یا نهرُ
لیلة النهر .... الخ
رُبَّ مِثلینا وفیا الدِّینا
لیلةً قمرًا هاهُنا مرَّا فی الثری الآنا !
فاحْسُ یا قلبی خمرةَ الحبِّ
واغنم الأُنسا قبلَ أنْ تُنسی مثلَ منْ بانا
فإنْ هام غدًا یا نیلُ مِثلانا
علی الزّورق فی القمراء هل یا نیل تنسانا ؟
لیلة النهرِ درّة العُمْر
ساهرُ البدر وحدَهُ یدری
بالذی کانا

واستعبرت إحسان عندما سمعت المقطعین الأخیرین من الأبیات وأدرکها شعور عمیق من الحزن والتشاؤم . فلما أراد فؤاد أن یعیدهما صاحت به « حسبك یا فؤاد حسبك ! » وانتفضت من مکانها مذعورة حتی کاد الزورق ینقلب بهما لولا أن فؤادا أمسکها بإحدی یدیه وعدل جانب الزورق الشائل بالأخری . ثم جعل یهدیء من روعها ویقول

لها : « ما بك يا حبيبتى ؟ » .

قالت والدموع فى عينيها وفرائصها ترعد « لا شىء . غادر بنا هذا المكان . أسرع بنا لنرجع يا فؤاد » .

ـ لعل بردا أصابك فارتدى معطفك هذا . سنعود حالا .

وأخذ فؤاد مجدافيه ورمى ببصره إلى الشاطىء الشرقى ليرى فى أى موضع هو من النهر فلمحت عينه خرابة الشاعر قائمة حذاءه ، فأدار الزورق صوب الشمال بسرعة كادت تقلبه وطفق يجدف بكل قوته وعينه عالقة بالخرابة القائمة وهو يتوهم أن شيئا أبيض كالقطن المندوف يوشك أن ينطلق منها ويتدحرج على وجه الماء حتى يدركهما !

ولم يخبر إحسان بشىء مما هجس بخاطره فلم يدر بخلدها إلا أنه شعر بمثل الوحشة التى شعرت بها .

وما رابها تجديفه السريع إذ ظنت أنه إنما فعل ذلك لإرضائها . وما لبث الزورق أن ارتطم بحيث مربطه على الشط فإذا كلب ينبح فذعرا فى أول الأمر ثم ما لبث أن أنسا بنباحه حين رأيا صاحبه الملاح قد أقبل خلفه فساعدهما على النزول .

وبعد أن ربط مركبه رافقهما فى الطريق الرملى ليوصلهما إلى رأس الشارع . فلما مروا بكوخه قال لهما : « ألا تشربان قهوة عندى ؟ الكوخ ليس على قد المقام ولكنه يرحب بكما » .

فأجابه فؤاد : « شكرا لك يا عم دسوقى ، ليس هذا وقت القهوة سنشربها عندك فى وقت آخر إن شاء الله » .

ولكنه شعر بأنس عجيب إلى النور الخافت المنبعث من باب الكوخ كأنه يجيره من ضوء القمر الموحش ، فهم بولوج الباب ولكنه ارتد عنه إذ تذكر أنه لا يسوغ له ذلك إلا بإذن صاحبه . ولحظ الزورقى حركته هذه فقال له : « تفضل يا سيدى : المحل محلك » .

وخجل فؤاد مما بدر منه وأحب أن يتنصل بأى عذر يرتجله فقال على البديهة : « لقد عن لي أن أكتب شيئا على استعجال فلو أدنيت السراج قليلا إلى الباب » .

قال الزورقى : « بل ادخل يا سيدى ليس هنا إلا أم دسوقى نائمة .. تفضلى يا سيدتى ! » .

فاعتذر فؤاد عن الدخول فما كان من دسوقى إلا أن جاء بالسراج فوقف به على الباب تخفق ذبالته من الريح ؛ فقعد فؤاد مستوفزا واعتمد على ركبته وجعل يكتب الأبيات التى علقت بحفظه خشية أن ينساها .

ومشى الحبيبان فى شارع المنيل يؤمان الروضة وقد خفت عن إحسان الوحشة التى كانت تشعر بها فهى مسرورة مبتهجة تلهج بهذه النزهة الفريدة الممتعة . أما فؤاد فإنه ما زال مشغول الفكر فى مصدر الصوت الذى سمعه ؛ وهو فرح بالأبيات التى قيدها إلا أن فرحه يشوبه شىء من الخوف والرهبة . ولكنه لم يشأ أن يخبر إحسان ليلتذ بشىء من ذلك لئلا يمتلىء قلبها رعبا .

ولما أوصلها إلى بيتها كان همه أن يلقى الأستاذ مراد السعيد أسرع ما يمكن، فانطلق يعدو راجعا نحو المنيل حتى بلغ بيت مراد فى الساعة الواحدة إلا ربعا . ولم يكد يدخل غرفة البيانة حتى ارتمى على الشيزلون وهو ينهج من التعب .



وانتفضت من مكانها مذعورة
حتى كاد الزورق ينقلب بهما

— مالك تنهج هكذا ؟ أجئت إلى عدوا ؟
— نعم لأدركك قبل أن تنام .
— قد قلت لك لن أنام حتى تأتيني . قل لى ما وراءك ؟
— شيء عجيب ما أحسبك تصدقنى إن حدثتك به .
— ليلة رائعة مع الحبيبة ! هذى خلاصة ما ستحدثنى به . دع هذا الحديث إلى الغد وقل لى هل أكملت اللحن ؟
— الأمر أعظم مما تظن . حادثة غريبة لا يتصورها العقل .

فاعتدل مراد فى مجلسه على كرسى البيانة وقال له : « قل لى ما هى ؟ » .

فأخرج فؤاد الورقة من جيبه وناوله إياها قائلا : « خذ هذه الأبيات إنها ليست من نظم أحد . إنى سمعتها من صوت غريب فى النهر » .

فلم يبد على مراد أنه اهتم بشىء مما يقول فؤاد ، وإنما نظر مليا فى الورقة ثم قال وقد برقت أساريره فرحا : « عجبا .. هذه على قد اللحن . من أين أتيت بها ؟ من نظمها لك ؟ .

— لا أحد .. ألم أقل لك إنى سمعتها من صوت غريب فى النهر ؟
— صوت من ؟
— هاتف لا تراه العين سمعته يغنيها يتابع بها لحنى .

ظن مراد السعيد فى أول الأمر أن فؤادا يمزح وأن أحد الشعراء نظمها له ، فأخذ يحاوره ويداوره ليستخرج الحقيقة منه ، ولكنه ما لبث أن رأى من جد فؤاد وانفعاله وفروغ صبره إذا نوقش ما لم يدع محلا للشك فى صحة ما زعم . وحينئذ سأل فؤادا أن يقص عليه كل ما حدث بالدقة والتفصيل فروى فؤاد القصة من أولها إلى آخرها ومراد

يصغى إليه ويقاطعه من حين إلى حين بالسؤال ليستوضحه بعض النقط فى روايته . فلما انتهى من ذلك قال له مراد : « إنك أعجوبة حقا يا فؤاد . كل يوم تتكشف لنا فيك عبقرية جديدة . لقد كان أول لحن صنعته كاملا ، وهذه أول قصيدة أنشأتها كانت كاملة أيضا . » .

— ماذا تقول يا أستاذ ؟ أما تزال تشك فى صحة ما رويت لك ؟ إنى والله ما نظمتها ولم ينظمها لى أحد . والله لقد سمعتها من هاتف فى النهر !

فضحك مراد وقال له : « قد علمت أنك صادق فيما تقول وما أشك قط فى صحة ما رويت . وإنما أنت شاعر من حيث لا تدرى .. شاعر عظيم يا فؤاد . » .

— سبحان الله . ما هذا الكلام ؟ أقول لك إننى سمعتها من هاتف لم أره وتقول لى إنى شاعر !

— هذا الهاتف الذى سمعته إنما هو صوتك أنت !

— صوتى أنا ؟

— نعم ، صوت عقلك الباطن قد استيقظ فى ساعة من ساعات النشوة العارمة — حين استرخى عقلك الواعى وفقد سيطرته عليه — فانطلق يسمعك هذه الأبيات التى كانت مختمرة من قبل فى أطواء نفسك مستكنة فيها .

دهش فؤاد لما سمع وخالطه مزيج من الفرح والحيرة فسكت هنيهة يفكر فيما قال أستاذه ثم قال له :

— إن صح ما تقول فبم تعلل وعيى للأبيات ؟ أوعيتها أيضا بعقلى الباطن ؟

— كلا ، بل بعقلك الواعى حين استيقظ . أليس أحدنا يذكر فى يقظته الحلم الذى رآه فى منامه ؟

— أترى أن هذا الذى وقع لى حلم من الأحلام ؟

— لا ، ليس حلما ولكنه شبيه به . إن هذا الذى وقع لك ليذكرنى بما وقع لكولردج الشاعر الإنجليزى إذ نظم فى منامه قصيدة من أروع قصائده هى قصيدته « كوبلاى خان » .

— كوبلاى خان ... ؟

— نعم سأبحث لك عنها غدا لنقرأها معا . أما الآن فدعنا نستمتع بقصيدتك الرائعة .. غنها يا فؤاد وأنا أعزف لك .

وما انتظر جواب تلميذه بل استقبل البيانة وطفق يوقع اللحن .

١٧

عاد فؤاد إلى بيته فى الساعة الثانية ليلا بعد أن تعشى مع مراد السعيد فقصد توا إلى سريره ، ولكن النوم استعصى على عينيه فبقى يتقلب على فراشه والأفكار تثقل رأسه والهواجس تلعب بقلبه وتذهب به كل مذهب . وكلما غلبته السنة فغفا لحظة أدركه كابوس فهب من غفوته مذعورا ، ويحس كأن رأسه قد تخلخل وانتشر فكبر عما كان فيضغطه بيديه ضغطا كأنه يريد أن يرجعه إلى حجمه الأول ، ويشعر كذلك بطنين فى داخله كأنما يهدر فيه شلال . ولما أعياه الأمر قام إلى الحوض فغسل رأسه فشعر بشىء من الراحة وعاد إلى فراشه يستعطف النوم فعطف عليه قبيل الفجر .

ولم يصح من نومه إلا قبيل الظهر وقد استراح جسمه وهدأت نفسه وعاد إلى ذهنه صفاؤه فجعل فى هدوء يستعرض ما جرى له فى الليلة البارحة وما قاله مراد السعيد فى تعليل ذلك الحادث الغريب فلا يجد من نفسه ميلا للاقتناع به .

« صوتى أنا ؟ هذا محال لقد سمعته بأذنى ولا يمكن أن أنخدع فيه . أهذه القصيدة من نظمى ؟ يا ليت ذلك يكون ! ولكن لماذا لم أقل مثلها من قبل ولا أستطيع أن أقول مثلها الآن ؟ أيصح فى الأذهان أن أكون شاعرا ولا أعرف أنى شاعر ؟ » .

ولما ذهب إلى بيت مراد بعد العصر ناقشه فى أمر الصوت من جديد فأخذ مراد يشرح له النظرية بإسهاب وتبسيط ويضرب له مختلف الأمثلة وقام إلى مكتبته وأراه قصيدة كولردج وقرأها عليه وشرح له معانيها . ثم قال له إن قصيدتك لا تعدو أن تكون كهذه .

فراجعه فؤاد قائلا : « إن كولردج هذا شاعر معروف قد قال الشعر من قبل وقاله من بعد فأمره يختلف عن أمرى » .

— فيم تعلل هذا الحادث إن كنت لا تقنع بهذا التفسير ؟

— لا أدرى . لعله صوت من الغيب .

— صوت من الغيب .. صوت من تعنى يا فؤاد ؟

— لا أدرى .

— قل لى هل سمعته صاحبتك مثلما سمعته ؟

— نعم سمعت الأبيات كما سمعتها فطربت لها .

— ما أقصد هذا . هل سمعت الصوت منفصلا عن صوتك وأنت تدندن باللحن كما خيل إليك ؟ وهل سألتها عن هذا ؟

سكت فؤاد قليلا ثم قال : « لا .. لم أسألها عن شيء من هذا لأنى خشيت أن يمسها الذعر إذ أدركت من وجهها ومن كلامها أنها حسبت أن الصوت صوتى . وأنى أنا الذى غنى الأبيات » .

فابتسم مراد قائلا : « إذن لم يبق ثم شك فى صحة ما ذهبت إليه من أنه صوت عقلك الباطن . وإلا لسمعت هى صوتين كما خيل إليك » .

ــ لقد نسيت أن أذكر لك أنى حين أردت الرجوع بالقارب لمحت عينى الخرابة المهجورة التى يدعوها الناس خرابة الشاعر فأرعدت فرائصى وأصابنى فرق شديد .

فضحك مراد وقال له على سبيل الدعابة : « لعل ذاك الشاعر القديم هو الذى أسمعك ! » .

رنت هذه الكلمة فى قلب فؤاد فبقى برهة صامتا كالمبهوت .

ــ ما أصابك يا فؤاد ؟ أو صدقت هذا القول ؟ إنما قلته مازحا .

واستمر صمت فؤاد .

ــ ما هذا الوجوم ؟ فى أى شيء سرح فكرك ؟

ــ فى هذا الذى قلت لى الآن .. ألا يجوز أن يكون الصوت الذى سمعته هو صوت ذاك الشاعر حقا ؟

فأخذ مراد يفند له هذا الوهم فما يزداد فؤاد إلا ميلا إلى تصديقه وطال بينهما الأخذ والرد إلى أن قال فؤاد : « يا أستاذى لا مناص من أحد الأمرين . إما أن يكون الشعر لى وإما أن يكون لغيرى . ألا توافقنى على هذا ؟ » .

قال له مراد : « نعم » .

ــ فإن كان الشعر لغيرى فأغلب الظن أن يكون الصوت الذى

سمعته بإزاء الخرابة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل هو صوت صاحبها الشاعر الذى يتحدث الناس أنه يخرج ليلا وأنهم يسمعون أصواتا من خرابته .

— هذا افتراض غير صحيح أساسه الوهم والخرافة الشائعة .. ولكن لا بأس ، استمر فى حديثك .

— وإن كانت القصيدة لى — وهذا مالا أسلم به — فلماذا لا أستطيع أن أقول مثلها وقد تمنيت كثيرا أن أكون شاعرا وعالجت قول الشعر فلم أفلح . فكيف يصح القول بأن هذه الأبيات من شعرى ؟

— أما أنك لم تقل قبل هذه القصيدة شعرا فهذا صحيح . ولكن لا يلزم من ذلك أنك لن تقول غيرها فى المستقبل . كما أنك لم تضع لحنا قبل لحن (الحيرة) ثم وضعت بعده لحنين يتلوهما إن شاء الله ألحان كثيرة .

لم يستطع فؤاد أن يقتنع بما ذهب إليه أستاذه فى تفسيره الحادث ولا سيما بعد ما تمكن فى قلبه اعتقاد أنه صوت الشاعر صاحب الخرابة . وقد أراد أن يقيم لأستاذه البرهان على صحة زعمه فاعتزم فى نفسه أمرا .

ففى صباح اليوم التالى ذهب إلى حديقة الأورمان وانتبذ له مكانا خاليا فدندن لنفسه بلحن الانتظار حتى إذا ما انتفض المعنى حيا فى نفسه جعل يحاول التعبير عنه بالشعر وظل يقوم ويقعد ويسير هنا ويقف هناك وهو يأمل أن يستقيم له بيت من الشعر فلم يقدر على شىء حتى ضاقت نفسه حين أدركته الظهيرة فرجع إلى بيته وقد ازداد يقينا بأنه ليس شاعرا كما يزعم أستاذه .

ولما كانت الساعة التاسعة ليلا ركب الزورق ومعه العم دسوقى الملاح ليسأنس برفقته وليستشهد به على ما عسى أن يسمع من صوت ذلك الهاتف المجهول . وطاف الزورق بأنحاء النهر ووقف مرارا بإزاء الخرابة وفؤاد يدندن بلحن الانتظار يبدىء فيه ويعيد . فلم يسمع شيئا حتى ضاق صدره ودب اليأس فى نفسه كما دب الملل فى نفس الملاح الذى لا يعلم ماذا يقصد هذا الشاب من تطوافه فى النهر ووقوفه المرة بعد المرة حيال الخرابة وهو لا يكف عن الدندنة .

وبدا لفؤاد أن يعود وقال فى نفسه سأعيد اللحن للمرة الأخيرة فإن سمعت شيئا وإلا عدت . وما كان أشد دهشته حين بدأ اللحن فسمع الصوت يتابعه بأبيات على قده ، وكلما وقف عن الدندنة وقف الصوت معه وأدرك فى هذه المرة أنه آت من قبل الخرابة لا شك عنده فى ذلك ، فاعتراه شيء من الخوف ولكنه اطمأن قليلا حين نظر إلى الملاح فلم ير عليه أثرا من الخوف ، بل رآه يرنو إليه بهشاشة وارتياح كأنه يستزيده مما سمع وقد زال عنه ذاك الملل الذى كان باديا فى وجهه .

وكرر اللحن والصوت يتابعه ويكرر الأبيات معه حتى كف فؤاد عن الترنم باللحن وصار يغنيها مع الصوت ثم انقطع الصوت فصار يغنيها وحده . فلما أيقن أنه وعاها أشار للملاح فكر بالزورق راجعا .

وانطلق فؤاد إلى بيت مراد السعيد وهو يردد الأبيات فى سره كيلا ينساها فى الطريق فما كاد يقبل عليه حتى قال له : أكتب يا أستاذ اكتب !

— ماذا أكتب ؟

ــ سمعت الصوت مرة ثانية ودونت أبياتا جديدة ، فاكتبها قبل أن أنساها ، وأملى عليه قصيدة الانتظار فلما انتهى مراد من كتابتها قام إليه فقبل رأسه قائلا :

ــ هذه قصيدتك الثانية يا فؤاد . ألم أقل إنك شاعر عظيم ؟ .

ــ كلا لا تقل هذا الآن . لقد سمعت الصوت آتيا من قبل الخرابة فلم يبق لدى الآن شك فى أنه صوت صاحبها الشاعر ، وهذه القصيدة والتى قبلها من شعره .

ــ بل هما من شعرك ، وما سماعك الصوت كأنه آت من قبل الخرابة إلا من أثر الوهم الذى قام فى نفسك .

ــ لك يا أستاذى أن تثبت ما تشاء وتنفى ما تشاء : أما أنا فلا أستطيع أن أعد ما سمعته بأذنى هاتين وهما باطلا لأثبت لنفسى القدرة على قول الشعر ، وقد ثبت عندى بالتجربة الصحيحة عجزى عنه فقد قضيت صدر النهار اليوم فى الحديقة أحاول أن أقول الشعر فى هذا المعنى فلم يستقم لى بيت واحد .

ــ هذا لا ينفى أنك شاعر ، فإن الشاعر لا يواتيه الإلهام فى كل وقت وكل مكان ، ولا سيما فى حال شخص مثلك يا فؤاد يعتقد أنه ليس بشاعر ، فلا تنطلق شاعريته حين تنطلق إلا عند ما ينفك هو من أسر هذه العقيدة فى غفوة من غفوات عقله الواعى ويقظة من يقظات عقله الباطن .

ــ لماذا لا أسمع الصوت إلا فى ذلك الموقع خاصة ؟

ــ لأن للملابسات الزمانية والمكانية أثرا لا ينكر فى تنبيه العقل الباطن كما أن لحالتك النفسية وأنت منفرد ليلا فى ذلك الموقع من

النهر يسبح بك الزورق حيال الخرابة التى كثرت عنها الأساطير المثيرة أثرها الكبير كذلك . وأخشى أن تصبح هذه عادة فنية لك فإن لكثير من الفنانين عادات يستنزلون بها عرائس إلهامهم .

وأراد فؤاد أن يقول شيئا فاعترضه مراد قائلا : « حسبنا اليوم جدلا يا فؤاد . دعنا نأخذ فيما هو أجمل وأمتع لقلوبنا منه » . وما أتم جملته هذه حتى أجرى أنامله على مفاتيح البيانة يوقع لحن الانتظار .

وإذا فؤاد ينسى جدله ويندفع يغنى :

طَـالَ انتظـارِى عـزَّ اصطبـارى
أوّاهُ يـــا سا عــةَ المَـــزارِ
ياحرَّ نارى من انتظارك ؟

هلْ وقفَ الدهرُ عن مَسيرِهْ فلم يحنْ مَوْعدُ الحبيبِ !
فما لـذَا الماءِ فى خريـرِهْ يجرى إلى حقله القـريبِ
فيَشْتفى الحقلُ منه ريًّا ؟

طال انتظارى .... الخ

وما لهـذَا النسيـمِ طَلْقًـا يَسرى إلى الأيك والغصونِ
يَزُورُأحبابَـــهُ ويَلْقَــــى فما وقوفُ الزمان دُونـى ؟
ولم يَعُقْ عن سوَاىَ لقْيا ؟

طال انتظارى ..... الخ

سئمتُ منْ رُؤيةِ الزُّهـورِ ومِـن أغاريـدَ للطيـورِ
ومنْ نسيمٍ ومنْ عبيـرِ قد صرْن كَلاًّ على ضميرى
إذ غابَ عنِّى سناَ الحبيبِ ؟

طال انتظارى .... الخ

وكلّما قُلتُ : لنْ أظَـلاّ ... وَرُمتُ أن أبـرَحَ المحَـلاّ
صاحَ شفيعُ الحبيبِ :مَهلاً ... وماشفيـعُ الحبـيبِ إلاّ
فؤادِىَ الدائمُ الوَجيب

طال انتظارى ..... الخ

وقد ملِلْتُ الضُّحى ومَلاّ ... طَاولْتُهُ الصبرَ فاضمَحـلاّ
والظُّهرُ ولى والعَصرُولـى ... وطـالتِ الشاخصات ظِـلاّ
ومَـا بـدَا للحبيبِ ظِـلُّ

طال انتظارى .... إلخ

أوّاهُ مـن كـاذبِ الرجـاءِ ... وبـارقٍ مُطْمَـع بمـاءِ
أرُوم بـأسًا فـلا يُطيـعُ ... قـلبٌ لـهُ بالمنـىٍ وَلـوعُ
إن المنُـى شقـوةٌ وذُلٌ !

طـال انتظـارى ... عـزّ اصطبـارى
أوّاهُ يـــا سا ... عـــةَ المَـــزار
يا حرَّ نارى من انتظـارِكْ

١٨

تعلق فؤاد بعد ذلك بأمر الخرابة وصاحبها حتى أصبح شغله الشاغل ، وكان منذ صباه قد سمع بعض الأساطير التى يرويها أهل الحى عن صاحب هذه الخرابة المسكونة في زعمهم ، فما كان أثرها فى نفسه يعدو أثرها فى نفوس غيره من الأطفال الذين سمعوها : فقد كانوا يخافون هذه الخرابة ولا يجرءون على الدنو منها ليلا لئلا يظهر لهم عفريتها ويحملهم إلى خرابته فيقتلهم أو يرميهم فى اليم .

أما وقد اعتقد فؤاد أن صاحبها الشاعر هو الذى هتف له بتلك

الأبيات الرائعة التى ساوقت ألحانه فصار يغنيها ولا يمل من ترديدها فلم يقنع من أخباره بما سمع فى صباه . فأخذ يتقصى أخباره ويسأل عجائز الحى وشيوخه المعمرين عما يعرفون من قصة حياته ويكتب كل ما روى له من ذلك حتى جمع أخبارا وأساطير كثيرة وهو يعتقد فى صحتها إلا ما يتناقض منها فيحاول الجمع بينها على وجه يرضى ميله إلى إنصاف هذا الشاعر وتقديس ذكراه .

وكانت الصورة التى استخلصها من مجموع هذه الأساطير المختلفة أنه شاعر عاش فى زمن قديم لا يعرف على وجه التحديد ، وأنه أحب ابنة عمه ونظم فى حبها القصائد ولما زوجت من غيره يئس من حياته فقتل نفسه من أعلى بيته فغرق فى اليم . فصار (عفريته) أى روحه يهيم إلى اليوم حول تلك الخرابة التى كانت بيته . وقد ضاعت قصائده فلم يحفظ منها شىء .

شعر فؤاد برثاء شديد لهذا الشاعر الذى عاش بائسا ومات بائسا ولزمه البؤس حتى بعد موته ، فهو موكل أبدا بالخرابة يهيم حولها ليلا ويخافه الناس ويتقولون عليه الأقاويل . وتحول الرثاء إلى حب شديد له وولوع بذكره وهيام بآثاره ، فأكثر التردد على الخرابة نهارا حتى ألفها وأنس إليها ، فكان يجلس على صخرة هناك تطل على النهر فيقضى الساعات الطوال مرسلا لخياله العنان يرجع به القهقرى حتى يصل إلى عصر الشاعر فيراه وقد برح به الحب وأضناه السقم وقرح جفونه الدمع والسهر وهو يناجى فى ظلام الليل وسكونه طيف حبيبته النائية ويغنى بصوته الحزين قصائده الشجية فيطوى الليل أغانيه ويذيبها فى مياه النهر !

واهتاجت شجون فؤاد يوما فى خلوة من خلواته فى هذا المحراب فوضع قطعة موسيقية أسماها « الطلل » اهتز مراد السعيد لما عزفها له فؤاد على البيانة حتى اشتاق أن يزور معه الخرابة التى أوحت إليه هذا اللحن العميق .

ودأب فؤاد على الترنم بهذا اللحن فى خلال الساعات التى يقضيها وحده هناك وهو شديد الرجاء أن يسمع صوت الشاعر صاحب الطلل. أليس هو الآن أدنى إلى روحه وأحرى أن يسمع صوته ويفوز بمناجاته ؟ ولكن أياما مضت عليه دون أن يسمع شيئا ، وطال به ذلك فخالجه أسف شديد لخيبة أمله وخشى أن يكون ما قاله الأستاذ مراد السعيد صحيحا وأن يكون ما ظنه هو وهما كله . لعل السر فى سماعه ماسمع يرجع إلى ركوبه الزورق ليلا فى ذلك الموقع المثير فيسمع صوت عقله الباطن لاصوت الشاعر ، ولعل تلك عادته الفنية كما فسرها الأستاذ مراد . فحزن لذلك حزنا شديدا .

كان فؤاد فيما مضى يتمنى أن يقول الشعر ، ولكنه أصبح اليوم لا يتمنى أن يكون شاعرا قدر ما يتمنى أن يحقق ما ظنه من سماعه صوت هذا الشاعر الذى تعلق به قلبه . وأى ألم فى الوجود أشد عليه من أن يتبين يوما أن ليس الإنسان الذى حبه ذلك الحب وجود ؟

قال له مراد يوما وقد وقع اللحن فطرب له : « ألاتنظم أبياتا لهذا اللحن الجديد » .

— يا سيدى كيف أنظمها ولست بشاعر ؟

فابتسم مراد قائلا : «معذرة يا صديقى . دع عقلك الباطن ينظمها لك . خذ زورقك الليلة وحاذ الخرابة وترنم باللحن توافك ربة الشعر بما تحب» .

قال فؤاد في شيء من الغضب : « ولا هذا أيضا » .

— ماذا يضيرك يا فؤاد إن فعلت ؟هذه عادتك الفنية فما يمنعك منها ؟

وكأنما مست هذه الكلمات جرحا غائرا في قلبه فنكأنه فقال بصوت يقطر ألما : « أليس حراما عليك يا أستاذ أن تقضى بالعدم على هذا الشاعر المسكين ؟لقد شوه الناس ذكراه لغير ذنب جناه واعتبروه عفريتا يخوف به بعضهم بعضا فما يقترن اسمه عندهم إلا بالرعب والشر .أفما كفاه ما لقى من الناس حتى تسومه عذابا أشد من كل هذا إذ تريد أن تمحو أسمه من لوح الوجود ؟ وكأنى به ينتظر من فنان كبير مثلك أن ينصفه من ظلم الناس ويدفع عنه شر ألسنتهم وباطل ظنونهم ، فماذا يكون ألمه إن وجد الأنكار منك مكان الأنصاف وهو فى عالم الصمت والسكون لا يقدر أن يدفع عن نفسه بيد أو لسان ؟! » .

وما وصل إلى هذا الموضع من كلامه حتى انفجر باكيا .

وهال مرادا أن يبلغ الوهم من قلب صديقه هذا المبلغ ويتسلط على عقله هذا التسلط وأدرك أن جداله لا يزيده إلا استمساكا بما زعم وأشفق إن هو ناقشه بعد فيه أن يتمادى فى التشبث به والأيغال فيه حتى يفضى به إلى ضرب من الجنون . فرأى من ساعته أن يجاريه في عقيدته لعل المجاراة تكف من غلوائه وتخفف من اندفاعه إذ تفقده شيئا من حماسته التى يقتضيها الدفاع المستميت عن العقيدة المهددة .

— خفض عليك يا فؤاد . إنك مخطيء إن ظننت أنى أنكر وجود هذا الشاعر بعد ما سمعت من شعره هاتين القصيدتين الرائعتين . ولست من ضيق العقل بحيث أعتقد أن العلم البشرى قد أحاط بحقائق الوجود وأن فى وسعه أن يفسر مشكلاته . إن هذا العلم لا يزال إلى

اليوم عاجزا عن فهم كثير من الظواهر الطبيعية فما ظنك بشئون ما وراء الطبيعة ؟

فنظر إليه فؤاد فاتحا فمه من دهشته لما سمع منه .

واستمر مراد في حديثه يقول : « هذا الصوت الذى سمعته بإزاء الخرابة فى النهر لا يقدر العلم أن يفسره إلا بنحو مما شرحته لك من قبل ، فهو عاجز عن إثبات أن روح الميت قد تنطق بكلام يسمعه الحى . ولكن عجزه عن إثبات هذه الحقيقة لا يعنى قدرته على نفيها إلا عند المغرورين بهذا العقل البشرى المحدود . وأنا بحمد الله لست منهم .

وهنا لم يصبر فؤاد على الصمت فقال وقد تهلل وجهه : « أتؤمن الآن أن الصوت الذى سمعته هو صوت الشاعر صاحب الخرابة ؟ » .

ـــ ليس عندى ما يمنع من صحة هذا . إن الوجود مملوء بالأسرار التى يجهلها الإنسان كل الجهل .

ـــ فما الذى جعلك تصر قبلا على تفسير الحادث بالعقل الباطن ؟

ـــ إنما آثرت أن أفسره هذا التفسير العلمى لألقى فى روعك أنك شاعر لعل هذه القصيدة أن تفتق لسانك يوما بالشعر وما أردت قط أن أنفى إمكان هذا الصوت أن يكون من الغيب المجهول . ولكنى لا أكتمك أنى أحبك يافؤاد أكثر مما أحب ذاك الشاعر القديم .

خطر لفؤاد ـــ وقد سره هذا القول من أستاذه ـــ أن يخبره حينئذ بما كتمه عنه من قبل من شعوره بالألم والحيرة لأنه قضى الساعات الطوال يدندن بلحنه فى الخرابة فلم يسمع شيئا عسى مراد أن يفسر له سبب إخلاف الصوت له بما يهدىء من حيرته ويزيل عنه الشك الذى يحيك

فى صدره . ولكنه أشفق أن يميل هذا بمراد إلى الرجوع إلى تفسيره العلمى الأول فيتخذ من هذا الإخلاف برهانا جديدا على صحته . فآثر أن يظل كاتما عنه هذا الإصر الذى ينقض ظهره حتى يعالجه بنفسه ، وحسبه من أستاذه ما ظفر منه به من الموافقة على رأيه إجمالا .

وانصرف إلى بيته وهو مثقل بالهم .

ويل لك يا فؤاد . ما أحمقك إذ أغلظت لأستاذك فى القول لأنه يريد أن تكون شاعرا وتأبى إلا أن تنفى الشعر عن نفسك لتثبته لشاعر قديم قد هلك فى الدهر الأول ما عندك من برهان عليه إلا صوت سمعته فى النهر قد يكون صوت غيره وقد يكون صوت عقلك الباطن كما فسره أستاذك ، وهأنت ذا قد ترددت على الخرابة وترنمت فيها با للحن مرارا فلم تسمع فيها صوتا . ولعلك لو أطعت أستاذك فى الاستجابة لعادتك الفنية لسمعت كما سمعت فى المرتين الأوليين .

وتلك الليلة رأى فؤاد فيما يرى النائم كأن رجلا طويل القامة نحيف الجسم يلوح على وجهه الألم والبؤس قد أقبل عليه يقول له : « أما تعرفنى يا فؤاد ؟ » .

فيقول له فؤاد : « لا .. فمن أنت ؟ » .

— أنا صديقك الشاعر صاحب الخرابة . وإنى فى حاجة إلى عونك فلا تهجرنى .

— أأنت الذى أسمعنى صوته فى النهر ؟

— نعم فلا تغير عقيدتك فى .

— لماذا لم تسمعنى صوتك وقد ترددت كثيرا على منزلك وترنمت هناك باللحن الجديد الذى وضعته فى ذكراك ؟ أيجب على أن

أركب الزورق لتسمعنى ؟

ــ كلا ولكنك لم تأتنى فى الساعة الموقوتة . ألا تذكر يا فؤاد ليلة مررت وحدك بالشارع فلما سمعت حسي وليت منى فرارا . أتذكر كم كانت الساعة إذ ذاك ؟

ــ إحدى عشرة .

ــ فى تلك الساعة يبدأ طوافى يا فؤاد ... لا . لا تخش منى سوءا فإنى رجل طيب لا أضر أحدا . وإنى بحاجة إلى عونك وصداقتك فلا تهجرنى .

وانتبه فؤاد من نومه وقلبه يخفق والعرق يتصبب من جسمه فقص على أمه رؤياه . وكان قد حدثها حديث الصوتين اللذين سمعهما على الزورق . فأشفقت على عقله أن يلتاث ونصحته بالابتعاد عن هذه الأمور . ولما آنست منه العزم على الذهاب إلى الخرابة ليلا حذرته من ذلك تحذيرا شديدا وإلا فإنها تحتسب عند الله الأجر فى عقله.وذكرته بما وقع لأحد غلمان الحى الذى مر بالخرابة ذات ليلة فظهر له عفريت صاحبها فأصبح قد جن ولا يزال مجنونا من يومئذ . وما برحت تحذره وتخوفه حتى طمأنها أنه لا يذهب .

وقص هذه الرؤيا على مراد السعيد ولسان حاله يقول له : « لو لم توافقنى البارحة على رأيى لوافقتنى عليه اليوم » .

وكان مراد عسيا أن يقول له : « لا تحسب أن رؤياك هذه تغير فى الأمر شيئا فما هى إلا صورة من حديث نفسك ظهرت لك فى الحلم من جراء تعلقك الشديد بهذا الوهم » . ولكنه قد عزم على أن يتبع معه سبيل الموافقة والمجاراة ، فما كان منه إلا أن أظهر له التعجب من هذه

الرؤيا وقال إنه يمكن الاستئناس بها فى إثبات أن الصوت الذى سمعه فؤاد هو صوت هذا الشاعر حقا .

— أوَ بقى فى هذا شك يا أستاذ بعد هذى الرؤيا ؟

— لا يا فؤاد ، اللهم إلا ودّى أن لو كنت صاحب الشعر ، إذن لضمنا لكل لحن تضعه فى المستقبل قصيدة حية توائمه فى المعنى وتعدله فى النفس والطراز .

— سيكون لك ما تحب إن شاء الله . ألم تر أن الشاعر قال لى إنه فى حاجة إلى عونى وصداقتى ورجانى أن لا أهجره ؟

— هذا حق فلنر ما يكون .

ولم ير. مراد السعيد بدعا فيما عزم عليه فؤاد من غشيان الخرابة ليلا ، إذ لا يبعد عنده أن سيسمع الصوت فيها كما سمع فى النهر، بل لعل الوقوف ليلا داخل ذاك الطلل المهجور أشد إثارة للروعة وأفعل فى إيقاظ عقله الباطن من الوقوف بالزورق حذاءه على أمد منه .

ولكنه خشى — لطغيان هذا الاعتقاد على فؤاد — أن يطرق الخرابة فتتجسد له صورة من صور الوهم يذهب فيها عقله ، فنهاه عن ذلك وقال له إن ركوب الزورق أفضل له . فلما أصر فؤاد على عزمه عرض عليه أن يصحبه إليها متعللا بأنه يشتهى أن يسمع الصوت معه . فاستحسن فؤاد هذا المقترح وفرح به لأن وجود مراد معه سيشد من قلبه ويسكن روعه ، فإنه على شدة رغبته فى طروق الخرابة ليضمر فى نفسه خوفا .

وخرج الصديقان فى الساعة الحادية عشرة ليلا : فلما أقبلا على الخرابة وقف مراد على مقربة منها وقال لفؤاد : « تقدم ولا تخف فإنى

قريب منك ، وهذا الشاعر رجل خير لا يضر أحدا . » فتقدم فؤاد وهو يغالب الخوف في قلبه حتى وقف على باب الخرابة بحيث يرى في حلكة الليل بياض ثياب مراد ويرى مراد أيضا بياض ثيابه ، وما لبث فؤاد أن أخذ يدندن بلحن الطلل ، وكان صوته في أول الأمر مرتعشا ولكنه استقر بعد لأى ، ومراد مرهف سمعه حابس أنفاسه يتوقع في كل لحظة أن يسمع الصوت ، ولم يستطع أن يتذكر كم مرة كرر فؤاد اللحن حين سمع صوت فؤاد وقد استبدل بالدندنة أبياتا يغنيها غناء شجيا ما سمع في حياته أعذب منه وقال في نفسه : « هذا صوت فؤاد نفسه » . وكاد من فرحه أن ينطلق إليه فيحتضنه ويقول له : « ليس هنا من صوت غريب . هذا عقلك الباطن يملى عليك الأبيات ! » لولا أنه خشى أن يقطع ذلك النغم العذب الذى يتسلسل في آذان الليل حتى ابيض وجهه فكأنه الضحى في أنسه وضيائه ، فوقف مكانه ثملا يترنح .

هذا ما شهد مراد . أما فؤاد فقد بقى يردد الدندنة بعد سماعه الصوت حتى ظن أنه قد وعى الأبيات فأخذ يغنيها مع الصوت وما زال كذلك حتى انقطع الصوت فغناها وحده مرة أخرى ، وما أتمها حتى ترك الطلل منطلقا إلى حيث مراد فتعلق به كاللائذ وهو يرجف خوفا .

وطفق مراد يهدئه ويطمئنه وهما يتعدان عن الخرابة .

وما رجعا إلى البيت حتى زال الخوف عنه كأنه لم يكن . وجلسا يتذكران الأبيات التى سمعاها ويقيدانها فإذا مراد لا يذكر إلا بعضها وفؤاد يذكرها كلها .

وانطلقا يستبقان إلى غرفة البيانة فجلس مراد يعزف وفؤاد يغنى .

١٩

وجاء امتحان الدور الثانى فسقط فؤاد أيضا .

وليس سقوطه بغريب ، فإنه لم يفتح كتابا من كتبه المدرسية ، ولم يراجع درسا من دروسه ، ولو أراد ذلك فى هذه المرة لما استطاع وأنى له ذلك وقلبه موزع بين شغله بإحسان وشغله بأمر الشاعر صاحب الخرابة فوق شغله بالموسيقى ؟ وإن شغلا واحدا من هذه الأشغال لكاف فى الحيلولة بينه وبين أسباب النجاح فى الامتحان .

وقد كان فؤاد موقنا بهذه النتيجة ، ولم يشهد الامتحان إلا تأدية للواجب المفروض عليه .

ولم يخف على خاله كذلك أن مآله السقوط فقد رأى إهماله طوال العطلة الصيفية وعدم مبالاته بالاستعداد للامتحان ، فما اهتم بأن ينصحه أو يلومه على تقصيره بل وكله إلى نفسه وترك حبله على غاربه ، مكتفيا بأنه قد أنذره أنه إذا لم ينجح فى هذه الفرصة الباقية له فسينفض يده من أمره ولن يهتم بتربيته بعد ذلك أبدا .

وما اكتفى الشيخ عبد الله البرقاوى بهذا لما بلغه سقوط فؤاد بل هجره وقاطعه ومنعه حتى من تقبيل يده ، فعز ذلك على فؤاد ولكنه لم يحقد على خاله لعلمه أنه لم يفعل ذلك إلا لشدة حبه له وعظم أمله فيه فلا غرو أن يكون ألمه لما خيب فؤاد من رجائه عظيما .

ولم يكن ألم أمه بأقل من ألم خاله ولكنها فوضت الأمر إلى الله لما أعياها انتصاحه ورجوعه إلى صلاحه .

وكان فؤاد يبرها كثيرا ويعز عليه إغضابها ويود لو استطاع أن يرضيها ويحقق لها ما تريد ، ولكنه يرى أنه مدفوع إلى مصيره هذا بقوة قاهرة ليس إلى مقاومتها من سبيل ، على أنه كان إذا غضبت من بعض سلوكه قام إليها يترضاها ويقبل رأسها ويعدها أنه سيعمل بنصيحتها وما يظل يداورها باللطف والحسنى ويباسطها فى الحديث ويروى لها بعض النوادر الفكهة حتى تضحك وترضى عنه . وهى تختلف عن خاله بأنها أميل منه إلى الاقتناع بما عسى أن يكون لابنها من مستقبل موسيقى عظيم ، فكانت تعطف على آماله فى هذا المستقبل الموسيقى بعض العطف وإن لم يكن رأيها فى الموسيقى بأحسن من رأى أخيها .

أما فؤاد فقد استقبل يوم سقوطه فى الامتحان بالبشر والفرح لأنه يعده يوم الخلاص من قيود المدرسة التى تحد من حريته ، وهو وإن كان قد ألقاها عنه من قبل إلا أنه لم يزل يشعر بهمها باركا على صدره وبطيفها جامعا إلى عنقه حتى جاء هذا اليوم الذى ودعها فيه إلى غير معاد .

وعلم مراد السعيد بما كان من غضب خاله ، فشعر بشىء من الرثاء لهذه الأسرة التى خاب ظنها فى فرعها الوحيد ، وخاصة للأم الأرملة التى ناطت كل آمالها بابنها ورجت أن يحوز الشهادات العليا فيكون سندا لها وعونا على صروف الأيام . فوقر فى نفس مراد أنه ربما كان سببا لانحراف فؤاد عن نهجه المدرسى لأنه هو الذى شجعه على الموسيقى والغناء . وهو وإن كان مطمئن الضمير إلى أنه لم يسىء إلى فؤاد بل أحسن إليه وأحب له الخير حتى أفاد فؤاد فى المدرسة القائمة فى بيته هو من الثقافة الأدبية والفنية المتنوعة فضلا عن تكوينه الفنى

ما لم يكن ليقدر على تحصيل بعضه فى المدارس التى تنقله من فرقة إلى فرقة وتعطيه فى النهاية الشهادات ، إلا أن نفسه لن تطيب حتى يجنى فؤاد ثمرة نبوغه ويصيب من النجاح المادى والشهرة فى عالم الغناء والموسيقى ما يكافىء تلك الموهبة الفنية الخارقة التى بدأت تؤتى أكلها الطيب الممتاز .

ففكر فى مساعدته على البدء فى احتراف الموسيقى وتقديمه بذلك إلى الجمهور وإخراجه من الدنيا الخاصة المحدودة إلى الدنيا العامة الواسعة . حتى إذا أدرك النجاح المادى المقدر له كان فى ذلك تعويض لأسرته عما خسرت فيه مما كانت تؤمل فى مستقبله لو اطرد سيره فى السبيل الذى رسمت له . وهو موقن أن هذا التعويض سيكون أضعاف أضعاف ما خسرت .

على أن هذا الاعتبار المادى ليس كل شىء فى الأمر فإنه يرجو كذلك أن يكون فى توجيه فؤاد لاحتراف فنه وتقديم ألحانه للجمهور ما يدفعه للإنتاج المستمر .

نعم إنه يؤثر — لو يملك الخيار — أن لا يعجل بدفع فؤاد إلى هذه الخطوة حتى يستكمل فى رأيه تكوينه ، خشية أن تغره الشهرة العاجلة فتقعد به عن الطموح إلى بلوغ شأو أبعد فيما يرجى أن يدركه من السمو فى فنه والكمال . ولكن الرغبة فى التعجيل بتعويض الأسرة لم تترك له هذا الخيار .

ويعزيه فى ذلك إيمانه بعبقرية فؤاد ، وأن هذه العبقرية قمينة أن لا تنال الشهرة من سورتها ولا تقل من حدها شيئا مهما تكن ناشئة حديثة السن ، فإن العبقرية على العموم قلما تخضع لقوانين العمر وسنن

النشوء والتدرج ، فقد يكون باكورة ثمارها يانعة مستوية كأحسن ما يكون الينع والاستواء ، ثم لا يلزم أن يكون ما بعدها خيرا منها ، وإن فؤادا نفسه في بواكير نتاجه لمثل حي يشهد بشذوذ العبقرية وجبروتها !

وهو يرى أن في بضعة الألحان التي وضعها فؤاد ما يكفي للبدء بالظهور ، ولا ريب عنده أن الجمهور سيفاجأ بموسيقار يسمعهم ألحانا جديدة أصيلة وينشدهم أبياتا شعرية عامرة ، فلم يسبق في تاريخ الموسيقى في الشرق أن اجتمع الملحن العظيم والشاعر الموهوب في شخص واحد كما اجتمعا في فؤاد .

فكر مراد في هذا كله واستشار بعض خلصائه فوافقوه على رأيه وقالوا إن حفلة خيرية ستقام لإعانة إحدى جمعيات رعاية الأيتام وارتأوا أن يعرض على رئيس لجنتها برنامج غنائي يتبرع به الموسيقار الجديد الشاب فؤاد حلمي ، لتكون هذه المناسبة فاتحة للعمل ، وما كان من رئيس اللجنة حين عرضوا هذا عليه إلا أن تقبله بالرضاء والشكر .

وأقيمت الحفلة فنجحت نجاحا عظيما وكان غناء فؤاد أحسن ما عرض فيها ، وسمع الحاضرون شيئا جديدا لا عهد لهم بمثله حين غناهم فيها « ليلة النهر » و « الانتظار » و « الطلل » فطربوا طربا شديدا واستعادوه مرارا ، وطفقوا بعد خروجهم من الحفلة يتحدثون إلى أصدقائهم ومعارفهم عما سمعوا من هذا المطرب فكانُ قصارى ما يصفون به إعجابهم أن يقولوا : « لقد فاتكم نصف العمر إذ لم تحضروا هذه الحفلة » . « لا تذكروا اليوم فلانا وفلانا من المطربين فقد انقضى عهدهم بهذا الطالع الجديد ! » .

وما لبثت أن حذت حذو هذه الجمعية جمعيات خيرية أخرى ورجت فؤادا أن يحضر حفلاتها وعرضت عليه مبالغ من المال ولكنه أبى أن يقبل منها شيئا وآثر التبرع لها بذلك ، ورن صوت فؤاد فى هذه الحفلات فجعل الناس يقبلون عليها إقبالا تحسدها عليه دور اللهو والغناء .

وقد أرادت بعض الكازينات أن تتعاقد مع المطرب فؤاد حلمى ليلقى بعض أغانيه فى حفلاتها فلم يرض له بذلك الأستاذ مراد السعيد لأنها ليست فى رأيه دورا للفن وإنما هى مباءات للفساد تتخذ من دعوى الفن ستارا تخدع به الجمهور الساذج .

وكتبت الصحف عن هذه الحفلات ونوهت بنبوغ الموسيقى الجديد ونشرت بعض صوره وبدأت أقلام المختصين بشئون الموسيقى والغناء تكتب فى بعض المجلات الأسبوعية فصولا مقتضبة فى تقريظ فنه تارة ونقده أخرى .

وقد تساءل بعض الكتاب عن قائل تلك الأبيات التى يغنيها فؤاد واختلفت أقوالهم فيه وزعم أحدهم أن الشاعر هو المطرب عينه فاستنكف فؤاد من هذه الدعوى التى تعزو إليه ما ليس له ، فعزم أن يكتب مقالة يشرح فيها الحقيقة للناس ، لولا أن مرادا نهاه عن ذلك وخوفه عاقبته السيئة . فقد يلفت ذلك ولاة الأمر إلى هذه الخرابة المنسية وما يشاع عنها من الأساطير التى تحدث أحيانا آثارا ضارة ببعض سكان الحى فيقترح أحدهم هدمها وإزالتها . فكف فؤاد عن عزمه خشية من وقوع هذا الأمر . وبقى الناس برهة طويلة يختلفون فى نسبة هذه الأشعار حتى غلبت فى آخر الأمر نسبتها إلى المطرب نفسه .



وأقيمت الحفلة فنجحت نجاحا عظيما ، وكان غناء فؤاد

أحسن ما عرض فيها

٢٠

كان فؤاد فى خلال ذلك كعادته ينعم برؤية إحسان فى بيته حين تزور مع والدتها أمه الفينة بعد الفينة ، ويستمتع بلقائها فى النزهات الخلوية التى يختلسانها ويتفقان على مواعيدها كلما سنحت الفرصة وواتتهما الأيام . وقد استلهمها ألحانا جمة كلها من وحى البهجة ونعيم الوصل إلا قليلا منها أوحاه الشك أو الغيرة أو العتاب . وكان كلما وضع لحنا جديدا زار الخرابة ليلا فترنم به هناك حتى يسمع الصوت فيتلقى عنه الأبيات التى توائمه فيقيدها فى بيت مراد .

وكان فؤاد قد حرص فى بادىء الأمر أن يكتم عن حبيبته نبأ هذا الصوت الغريب منذ سمعه لأول مرة معها فى الزورق ليلة النهر لأنه خشى أن يثير ذلك الرعب فى نفسها ، ولكنه لم يستطع أن يكتمه عنها طويلا ، فما لبث أن حدثها ذات يوم بأمره ذاكرا لها أنه صوت الشاعر صاحب الخرابة ، فلم تصدق حديثه أول الأمر غير أنه لما قص عليها رؤياه وما سمعه بعد ذلك فى الخرابة ذاتها مع الأستاذ مراد لم يسعها إلا تصديقه . وكانت كلما ذكرت أمر هذا الشاعر وتردد فؤاد على خرابته فى جنح الليل ليسمع صوته شعرت بالرهبة والوحشة . فقد سمعت منذ صباها الأساطير التى ترويها الناس عن هذه الخرابة المسكونة ..

وطالما أوصته بالانقطاع عن طروقها ليلا خشية أن يصيبه من عفريتها سوء فيقول لها فؤاد إنه ليس بعفريت بل هو شاعر خير لا يضر أحدا وإنه محتاج إلى عونه وصداقته .

وقد أوحى إليها حبها لفؤاد أن تكتم هذا الحديث عن أمها وخالها وعن كل أحد خشية أن يتصل ذلك بعلم خالها فيتخذه ذريعة للطعن فى فؤاد واتهامه بالجنون واختبال العقل فلا يقبل طلبه إذا جاء يخطبها منه .

واطرد نتاج فؤاد بعدما بدأ يحترف فنه يدفعه إلى ذلك ما يأمل أن يصيبه من الشهرة والنجاح حتى يكون جديرا بيد حبيبته الحسناء .

ولقدزاد حبها له وإعجابها به . وطالما أصغت إليه وهو يحدثها بآماله الواسعة فى مستقبل موسيقى باهر ، ويقص عليها أنباء الحفلات التى حضرها وغنى فيها . ويطلعها على قصاصات الصحف التى كتبت عنه ونوهت بنبوغه ، فكانت تود لو حضرت بعض هذه الحفلات لترى بعينيها كيف يسكر حبيبها الناس بألحانه ويسحر ألبابهم بفنه الرفيع .

إلى أن اتفق أن صديقة له من بنات الوجهاء دعتها لحضور ليلة عرسها . وكان لهذا الوجيه صلة مودة بالأستاذ مراد السعيد وتجمعهما قربى بعيدة وقد سمع بنبوغ فؤاد حلمى وعلم ما بينه وبين مراد من الصداقة المتينة فرجا قريبه أن يدعو له المطرب الشاب ليحيى ليلة زفاف ابنته ويتفق معه على الأجر الذى يريد . فأجابه مراد إلى طلبه . وكان هذا الأجر أول مال كسبه فؤاد من وراء فنه .

وشهد فؤاد ليلة العرس وأحياها بأغانيه الشجية فطرب لها من حضر من الرجال والنساء واستعادوه بعضها وصفقوا له طويلا . وقد فرحت إحسان فى أول الأمر فرحا شديدا وملكها الزهو لما رأت من إطباق الحاضرين على الإعجاب بحبيبها . ولكنها سرعان ما دبت فى نفسها عقارب الغيرة حين رأت تهافت النساء والفتيات على فؤاد وتقربهن منه واعتراضهن إياه ليظفرن بالحديث معه ، وسمعت العذارى ولا هم لهن

إلا الحديث عنه : فمن معجبة بصوته ، ومن مفتونة بجماله ، ومغرمة بقوامه ، وذائبة فى نظرات عينيه . فأوشكت حينئذ أن تصرخ فى وجوههن « بأفواهكن الحصى ! وبعيونكن العمى ! أما تعلمن أن هذا حبيبى ؟ بأى حق تتغزلن هكذا فيه وتردن أن تأكلنه بأبصاركن ! وودت لو قدت من فستانها شقة فسترت بها عنهن وجهه . وهكذا انقلب فرحها تلك الليلة همًّا ، وانبساطها ومرحها اكتئابا وغما . وصارت تستطيل مدى الحفلة ، تستبطىء انقضاءها وتود بفقد شطر من عمرها لو انتهت وشيكا .

قال لها حين لقيها بعد ذلك : كيف رأيت الحفلة يا إحسان ؟

ــ كانت مدهشة ، وكنت فيها مدهشا جدا .

ــ وكيف كان سرورك ؟

ــ عظيما جدا لولا ...

ــ لولا ماذا ؟

ــ لولا تلك النسوة والفتيات الوقحات كأنها لا أزواج لهن ولا آباء !

ــ ماذا أنكرت يا حبيبتى منهن ؟

ــ أوَ تسألنى كأنك لم تر ما صنعن ؟ ما بقى عليهن إلا أن يقمن إليك فيبسنك أمام الناس !

ــ أغرت يا إحسان علىّ ؟

ــ طبعا . أجماد أنا ؟ .. أليس لى شعور ؟

ــ لا حق لك فى موقف كهذا أن تغارى .

ــ نعم ! أتراك لا تغار لو أنك رأيتنى يوما وحولى زمرة من الفتيان

يتهافتون علي ويأكلونني بعيونهم ؟

— بين الأمرين اختلاف يا حبيبتي . إن هؤلاء النساء إنما أعجبهن غنائي وأطربهن وما دعيت للحفلة إلا لهذا القصد .

— فليطربن بغنائك ما شئن كغيرهن من النساء والرجال . ولكن ما تطلعهن إليك وحومانهن عليك ؟ وما شأن قليلات الحياء بقوامك وهندامك ؟ هل جئت الحفلة لتجلو لحنك وفنك أم لتعرض جمال قدك وملاحة خدك ؟

فضحك فؤاد وقال لها : « أما تحبين يا إحسان أن يقول الناس عن حبيبك إنه جميل ؟ » .

فابتسمت إحسان وقالت : « أتريد الحق ؟ أحب أن أسمع هذا من الرجال وممن لا يطمعن فيك من النساء . أما اللائي يحاولـن أن يصطدنك .. » وغضت شفتيها ولم تتم جملتها .

— اطمئني يا حبيبتي . إن الفتيات لا يطمعن فى فتى مثلى لا يحمل شهادة عالية وليس مهندسا ولا طبيبا ولا تزين كتفيه شرائط ولا نجوم !

— لو كنت واحدا من هؤلاء لاطمأننت فإن أمثالهم كثير ولكن غناءك سيدلهن عليك فيتدلهن حبا بك .

— ما خوفك من هذا ؟ لئن أعجبهن غنائى فإنما أترنم لهن بآيات حسنك وألحان حبك . هلمى نتناصف : ماذا غنيتهن ليلتها ؟ ألـم أغنهن لحن (العتاب) فهل كان إلا عتابا لك يا قاسية على دلالك وصدودك ؟ ولحن (شم النسيم) فهل داعب نسيمه إلا خصلات شعرك ؟ وهل أفغم أنفى إلا بعبيرك ؟ ولحن (الميثاق) فهل سطره الحب إلا بينى وبينك ؟ (وليلة النهر) فهل هام زورقها الأعمى بغيرى

وغيرك ! أو اطلع بدرها الساهر إلا على وعليك ؟

وظلت إحسان مصغية ولم تتكلم .

— ما تقولين الآن ؟ أاطمأننت ؟

— نعم .. لا .. لا .

— قد قلت نعم .

— لا ! لا ! لا !

— فيم يا قرة عينى ؟

— وددت لو لم تك فنانا فتكون لى وحدى ؟

— إذا لما أحببتنى .

— كلا فقد أحببتك من قبل .

— ما يدرك أنك ما أحببتنى من قبل إلا لصوتى ؟ أما تذكرين أناشيد المدرسة الأولية ؟

فسكتت هنيهة ثم قالت : « لا والله يا فؤاد إنى لأحبك ولو لم يكن لك هذا الصوت الجميل » .

فتبسم فؤاد وقال : إن كنت صادقة فى هذا فعلام تغارين ؟ إن الناس إن شركوك فى شيء منى ففى صوتى ، وكل ما سواه خالص لك . فهبى هذا الصوت لم يكن لى .

— ولكنه موجود بالفعل يا فؤاد .

— أتريدين أن تستأثرى به أيضا ؟

— يا ليت ذلك فى ملكى .

— كلا يا حبيبتى إن الأثرة لا تكون فى الفن فهو كالهواء والشمس مشاع بين الناس.وحسبك يا حبيبتى أن تكونى ملهمته وربة وحيه .

فسكتت قليلا ثم قالت : « موقن أنت يا فؤاد أني أنا ملهمته ؟ » .

— سبحان الله أفي هذا تشكين ؟

— أما تزعم أنك سمعت هذه الأغاني من صوت الشاعر صاحب الخرابة ؟ فلعلها من إلهام حبيبته لا من إلهامى أنا .

فوجىء فؤاد بهذا الاستدراك من إحسان إذ لم يتوقع أن يخطر مثل هذا ببالها فسكت لأياً ثم قال لها : « إن لم يكن الشعر من وحيك لأنى لست قائله فلا ريب أن الألحان من إلهامك لأنى أنا واضعها على أن هذا الشعر إن لم يكن لى فقد عبر عن معان أثرتها أنت فى نفسى فكأنه لى وكأنك أنت ملهمته .

وخلا فؤاد إلى نفسه فجعل يفكر فى قول إحسان : « لعلها من إلهام حبيبته لا من إلهامى أنا » فقد مست هذه الكلمات مشكلة كانت قد قامت فى ذهنه من قبل فأثارتها من جديد .

ما هذه القصائد التى أسمعها من الشاعر صاحب الخرابة وما قصده من إلقائها على ؟ أهى القصائد التى كان قالها فى حياته فضاعت مع الأيام ونسيها التاريخ يريد أن يعيدها إلى الوجود ؟ إذا فكيف تتفق معانيها مع المعانى التى تقوم فى نفسى اتفاقا تاما ؟

أم هى قصائد جديدة ينشئها وفق الأحوال التي تنتابنى فيترجم بها عواطفى وإحساساتى ؟ لكن ماذا يدفعه إلى هذا العناء ؟ أتراه يجد لذة فى ذلك لأنه كان فى حياته شاعرا ؟ ماذا يقصد من قوله فى الرؤيا إنه بحاجة إلى عونى وصداقتى ! هل يعنى بالعون أن أذيع شعره فى الناس ؟ وهل يعنى الموتى بشئون الحياة الدنيا بعد إذ رحلوا عنها ؟ وهذا الشاعر المسكين ما سر خروجه هكذا ليلا كالهائم الشريد ؟ أهذا عقابه على

أنه قتل نفسه ؟ » .

وهكذا تتسلسل الأسئلة فى ذهن فؤاد آخذا بعضها برقاب بعض ولا يجد لواحد منها جوابا فيسايرها حتى تنتهى به إلى حيث ابتدأ فإذا هو يدور فى حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها .

فيرتد عنها ضيق النفس أسفا لأنه لم يسأل الشاعر عن بعضها حين رآه فى منامه ويتمنى لو يزوره فى الرؤيا مرة أخرى .

٢١

لم يهدأ لإحسان بال منذ شهدت فى حفلة الزفاف ما شهدت فجعلت بعد ذلك كلما لقيت فؤادا تحرضه بالتلميح والإشارة على أن يعجل بخطبتها من أهلها . فإذا رأته قد أصغى لذلك أشارت عليه بأن يبحث له عن وظيفة محترمة ولو براتب بسيط يكون له منها مورد ثابت حتى يستطيع بها أن يضمن قبول خالها لطلبه ، لأن رأى خالها فى الموسيقى والغناء لا يختلف عن رأى خاله . فاستثقل فؤاد هذا الاقتراح لأنه لا يحمل حتى شهادة البكالوريا ولكنه وعدها خيرا .

واستشار الأستاذ مرادا فى ذلك فاستحسن رأى الفتاة وأخذ يفكر فى ذلك حتى استقر رأيه على أن يتوسط لفؤاد فى الحصول على عمل مترجم بإحدى الصحف اليومية لما يرى من قدرة فؤاد على القيام بهذا العمل لإجادته اللغة الانجليزية إجادة لا بأس بها من كثرة ما قرأ فيها من الكتب التى كان يعيرها له من مكتبته ، وإجادته الكتابة العربية أيضا ، والتمرين كفيل بتذليل ما يقوم فى سبيله من العقبات .

وما هى إلا أيام حتى نجح مراد فى مسعاه فعين فؤاد فى قلم الترجمة بجريدة (....) براتب قدره ثمانية جنيهات فى البداية . وكانت الجريدة مسائية فكان على فؤاد أن يحضر إلى إدارتها فى الساعة الثامنة صباحا ويظل فيها إلى الثانية عشرة ثم لا عمل له بعد ذلك .

وهذا العمل على قلته ويسره كان ثقيلا على نفس فؤاد الذى تميل إلى الحرية المطلقة ولكنه احتمله على مضض لأنه فيما تزعم حبيبته شرط عند خالها لقبول طلبه إذا تقدم يخطبها .

وفرحت زاهية بما نال ابنها من الوظيفة التى ما كانت تطمع فى مثلها لمثله بعدما أخفق فى المدرسة ما أخفق ، فبدأت تشعر بالغبطة وبالامتنان لهذا الرجل الكريم الذى لم تكن تقدره من قبل إذ ظنت أنه سبب فساد ابنها وضياع مستقبله ، فإذا هو لا يألو جهدا فى تقويمه وابتغاء الخير له .

وذهبت فى طمأنينة وزهو تخطب ابنة صديقتها لابنها وهى لا تشك فى القبول فوعدتها سميرة بأنها ستعرض الأمر على أخيها ثم تخبرها بالنتيجة .

وكانت سميرة تعلم أن أخاها ينوى أن يوظف إحسان حين تتم تعلمها ليفيد من راتبها وأنه لن يزوجها إلا إذا تقدم لها ذو غنى يعطى بها مهرا كبيرا أو ذو جاه يستفيد هو من جاهه فى ترقية مركزه . ولكنها لم تشأ أن تكسر قلب صديقتها بالرد الصريح . فكان جوابها لها بعد ذلك أن خال إحسان يرى أنها لا تزال بعد صغيرة وأن عليها أن تتم تعلمها فى مدرسة الفنون الطرزية وأن لا داعى للاستعجال بالزواج . ولما آنست من زاهية أنها تشك فى مدلول هذا القول وأنه قد يكون حيلة لطيفة

للتنصل من القبول ، جعلت تطمئنها وتؤكد لها أنها لا ترغب بفؤاد بديلا وأن إحسان مسماة له من الصغر ولن تزوج لغيره . وما زالت بها حتى سكنت نفسها واطمأنت لهذا الوعد الصريح . فطمأنت ابنها وأوصته بالانتظار ريثما يكون هو أيضا نفسه ويزداد راتبه ويطمئن على مستقبله . لم يسع فؤادا إلا الاصطبار وهو لا يشك فى صدق ما يقال له . ولكن إحسان كانت تعلم بشيء من نية خالها فكانت قلقة تتوقع السوء إلا أنها كانت تتحفظ فى إظهار مخاوفها لفؤاد وتوصية فى الوقت نفسه أن يجتهد فى توطيد مركزه حتى يكون ذلك أرجى لبلوغ غرضه .

وأخذ فؤاد يطمع فى تكوين تخت خاص له وساعده على ذلك الأستاذ مراد بماله وسعيه فما لبث أن صار له جوقة قوامها فرقة من المطربين الشباب أكثرهم من الهواة انضموا إليه ليتخرجوا عليه ويتقدموا فى فنهم . وشعر فؤاد بهذه التبعة الملقاة على عاتقه فشمر عن ساعد الجد وأخذ يعمل معهم ليلا ونهارا يدربهم على عزف أغانيه ويوجههم . وكان مراد يشرف عليهم ويشجعهم ويسدد خطواتهم ويحثهم على التجويد فى فنهم والسعى لبلوغ الكمال فيه .

وأقام فؤاد أولى حفلاته الخاصة فى بعض الأندية العامة فلقيت نجاحا لا بأس به ، ثم أقام الثانية والثالثة فكثر جمهوره حتى ضاق النادى بهم فاستأجروا دار التمثيل العربى ليقيم فيها حفلاته الشهرية .

وصار ينفق على أعضاء فرقته بسخاء ويعطيهم نصيبا فى إيراد حفلاته فزاد حبهم له وتعلقهم به .

ولم يسع مرادا — وهو المشرف على تنظيم هذه الحفلات والمدير

لأعمالها وحساباتها — إلا أن يخرج ألبتة من عزلته القديمة ويغامس المجتمعات . وقد تم هذا الانتقال دون أن يقصده أو يشعر به لأن الظروف دفعته شيئا فشيئا إليه منذ اتصل حبله بحبل هذا الصديق الصغير .

٢٢

بدأ اسم فؤاد يلمع فى سماء الشهرة حين فوجىء بمجىء إحسان ذات يوم تخبره بأن شابا من أسرة كبيرة تقيم بجوارهم فى الروضة قد خطبها ، وأن خالها قد وعده بقبول طلبه ، وأنها لما أخبرتها أمها بذلك عارضت فى قبوله ، ولكنها تخشى أن لا تجدى معارضتها شيئا لشدة خالها ونفوذ كلمته عليها وعلى أمها .

وهذا الشاب هو ابن عاكف باشا صاحب الثراء العريض ومن ذوى المناصب الكبرى فى الدولة وليس لأبيه ولد سواه . فكان أمله فى الحياة أن يستقيم وحيده هذا ليحفظ اسمه ويصون ثروته من بعده ، ولا سيما وقد طعن فى السن ، وأوشك أن يحال على المعاش ، وماتت زوجته أم صبرى فلم يشأ أن يتزوج أخرى . ولكن صبرى كان معوج السلوك مستهترا يقضى أيامه ولياليه فى الحانات والمراقص ودور اللهو الخليع . وقد هام بحب إحدى الراقصات فأنفق عليها كل ما وصلت إليه يده من مال أبيه حتى جأر أبوه بالشكوى من بدواته وصبواته . وطالما أشار عليه بالزواج لينقطع عنها فلم يقبل حتى كاد والده ييأس من صلاحه .

فلما سأله ابنه ذات يوم أن يخطب له ابنة آل ضياء الدين عجب من انقلابه هذا وأمل من ورائه خيرا فلم يتردد في إجابة مطلبه . وقد كان يريد أن يزوجه في إحدى الأسر الكبيرة التي تكافيء أسرته في الجاه والغنى ، ولكنه وجد من صبري إصرارا على ما اختار لنفسه . فما وسعه إلا النزول على اختياره .

ذهل فؤاد لهذا النبأ الهائل الذى روته له إحسان ، وزاد من همه وقلقه أن منافسه هذا ليس ممن يرجى من خالها أن يتردد في قبول طلبه لمكان أسرته من الثروة والجاه ، ولكنه لم يأذن لليأس أن يتسرب إلى قلبه فقد بقى له أن إحسان تحبه وأن أمها وهى الصديقة الجميمة لأمه قد وعدتها وعدا صريحا بأن لا تقبل لابنتها أحدا سوه . فبعث أمه لتكلم سميرة فى أمر الخطبة وتستنجزها وعدها ، فأنكرت سميرة أن أخاها قد قطع بقبول الشاب الغنى ، وأكدت لها أن المسأله لا تعدو الطلب المجرد وأن إحسان لن تكون إلا لفؤاد .

ولكن فؤاد لم يقنعه هذا الرد ولم تشأ أمه أن تكتمه عدم اطمئنانها أيضا إليه مما بدا لها من لحن قول صديقتها . فذهب فؤاد يشكو منه إلى مراد ويرجوه أن يشير عليه بما يصنع . فلم ير مراد خيرا من أن يذهب هو إلى خالها ومعه فؤاد ليقف منه على الخبر اليقين وليقنعه بقبول فؤاد ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وذهب فؤاد مع مراد إلى بيت الحبيبة فى موعد عين لها وقلبه يجب من القلق والتوقع لما عسى أن تتكشف عنه تلك الساعة الرهيبة من كلمة تسعده طول العمر أو أخرى تشقيه مدى الحياة .

واستعان مراد السعيد بكل ما يملك من حسن العرض ولطف القول

ونصوع الحجة وقوة التأثير ليقنع محمود ضياء الدين بقبول فؤاد لكفاءته واستقامته وتعدد مزاياه ومواهبه الفنية وما ينتظر له من المستقبل العظيم ، فكأنما يخاطب حجرا أصم . كان موقف محمود موقف الحريص على رأى قد صمم عليه لا يريد أن يعدل عنه بحال من الأحوال فلا تزيده المراجعة إلا تمسكا وتعصبا له ، وكلما قويت حجج مراجعه ضاق بها ذرعا واتقد قلبه على صاحبها كرها وغيظا . فما لبث أن زل لسانه بكلمات لا ينبغي أن توجه لمثل زائريه . وما زال مراد يتغاضى عنها ويحتملها منه رجاء أن يحصل منه لصديقه على ما يريد ، حتى نفد صبره حين يئس من إقناعه فكال له الصاع بالصاع ونزل إلى مستواه فخاطبه باللغة التى يفهمها أمثاله .

قال محمود ضياء الدين : « ليست ابنتى بائرة حتى أزوجها لضائع مثله لا شيء بيده ولا مزية عنده إلا أنه يغنى فى الأفراح والليالى الملاح ! خير لك يا أستاذ أن تزوجه فى أسرة تجدر به . »

— من أنت حتى تقول هذا ؟ إن أسرته لأفضل من أسرتك ؟

— إننا لا نزوج بناتنا إلا فى الأسر الكبيرة المحترمة .

— أجل ، لأنك إنما تريد بيع ابنة أختك لا تزويجها ولا يعنيك بعد أن تقبض ثمنها أن تسعد بزواجها أو تشقى به . وإلا لما آثرت لها برغمها ذاك الخليع الفاسد على هذا النابغة المستقيم .

— أنا وليها وأعرف بمصلحتها . وقد كنت سبب ضياع هذا الشاب بسوء إرشادك ، فلا تطمع أن تجنى على ابنتى بسوء رأيك . وبعد فلا فائدة من هذا اللغو فإنا قد قبلنا لها نجل عاكف باشا ، وانتهى الأمر .

— قل بالحرى إنك قبلت لها ثروة عاكف باشا ومنصبه فأهنئك على هذه الصفقة الرابحة .

ونهض مراد يريد الانصراف وتبعه فؤاد فقام محمود متلكئا ليفتح لهما الباب وكأنما يريد أن يستبقيهما ليسمعهما بعد ما يشفي به غيظه من الكلام الذى يزوره فى نفسه . وقد استطاع أن يقول لهما وهو على الباب قبل أن يفوت الفرصة « سنأتى بفؤاد إن شاء الله ليغنى لنا فى ليلة الفرح ! » .

وكانت إحسان قد علمت بموعد خالها مع فؤاد وأستاذه ولم تكن قد يئست بعد من رجوع خالها عن عزمه فى إكراهها على زواج من لا تحب ، ورجت أن يكون فى زيارة الأستاذ مراد السعيد ما يحقق لها شيئا من أملها . فجعلت تتطلع من الشبابيك فى ارتقاب مجيئهما ، حتى أقبلا فحدقت فى الأستاذ مراد الذى لم تره من قبل وطالما اشتاقت أن تراه . وما إن دخلا البيت حتى انطلقت هى إلى المطبخ لتساعد أمها فى إعداد الشاى للضيفين العزيزين وكانت زوجة خالها قد بدأت تحبها وتحب أمها منذ ولدت له طفلا ثم طفلة تعلقت بهما إحسان وأحبتهما حبا شديدا فكانت تحملهما لها وتساعدها على تربيتهما . وكانت سلمى تميل إلى رأى إحسان فى مسألة زواجها من فؤاد وكثيرا ما نصحت زوجها أن يدع لبنت أخته حرية اختيار زوجها ، فلا يكون جوابها منه إلا الزجر والنهر .

وما إن تم إعداد الشاى وتقديمه إلى الضيف حتى أومأت سلمى إلى إحسان فوقفتا على باب غرفة الاستقبال فجعلتا تتطلعان من ثقب الباب وتتسمعان وكان صدر إحسان يعلو ويهبط كلما اختلف الحوار لينا

وشدة حتى إذا سمعت خالها يقذف حبيبها بكلماته الجارحة مادت بها الأرض وكادت تقع على وجهها لو لم تسندها امرأة خالها فجرتها إلى حيث ارتمت على سريرها وهى باكية تنتحب .

ولما دخل خالها بعد انصراف ضيفيه ووجدها تبكى زجرها وسبها وكاد يضربها لو لم تحل زوجته دونها . ثم أنذرها بأن لا تقابل فؤادا بعد اليوم أبدا ، وأقسم لئن علم أنها لقيته أو لقيها بعد ذلك ليوجعنها ضربا . وقال لأخته : « انقطعى عن زيارة زاهية فإن عز عليك هجرها فزوريها وحدك وإياك ثم إياك أن تذهب إحسان معك » ولم تكن سميرة بحاجة إلى هذا التحذير فقد انقطعت من تلقاء نفسها عن زيارة صديقتها لأنها تخجل أن تراها ولا تدرى بأى وجه تقابلها بعد أن أخلفتها ذلك الوعد القديم .

أما فؤاد فقد اشتد به الهم وأمضه الحزن ولا سيما وقد احتجبت عنه إحسان فلم يعد يرى لها وجها أو يسمع لها حديثا . وانقطعت أمها عن زيارة أمه فانقطعت أخبارها عنه . ولم يكن حتى فى ذلك الحين يصدق تصديق اليقين أن قد حيل بينه وبين حبيبته إلى الأبد ، وأن لا مطمع له ألبتة فى لقائها . ويلذ له أن يعتقد أن حبل الرجاء لا يزال بعد موصولا وأن لا قوة فى الأرض تقدر أن تقطع ما وصل الحب بينه وبينها . وتمر الأيام ويشتد شوقه إلى رؤيتها فلا يجد سبيلا لشفاء الغلة الوارية فى صدره إلا أن يتسلل فى ظلام الليل فيطوف بدارها من بعيد حتى إذا أمن العيون دنا منها فطفق يقبل جدرانها ، وقد يهوى على عتبة الباب الخارجى فيلثمها ويلصق بها صدره ، فإذا قضى من ذلك بعض لبانته انصرف وقد سكنت النار التى تتسعر بين ضلوعه .

وقد دأب على هذا برهة حتى بصر به البواب ذات ليلة فارتاب بأمره فدنا منه ليقبض عليه ، فلما وجده فى بزة حسنة كف عنه ، ولكنه أخبر سكان الدار فى الصباح بما كان من أمر الشاب ، وجعل يصف قده وهيئته فعجبوا من قصته . ولكن خال إحسان لم يشاركهم العجب إذ هجس بخاطره أن ربما يكون ذاك الشاب هو فؤاد حلمى ، فأظهر عدم الاكتراث وأسر فى نفسه أمرا . أما إحسان فأول ما سمعت القصة لم تشك أنه هو فودت لو علمت ذلك من قبل دون أن يكشف أمره ، إذن لقرت عيناها برؤية شبحه يضطرب فى الظلام وأنست بهذا الحظ القليل من قربه . ولعله أن يرفع طرفه إلى نافذتها فيرى شبحها . وخفق قلبها شديدا لهذا الخاطر ولكنها كتمت ذات صدرها وأسرت فى نفسها أمرا .

فلما كانت الليلة الثانية جاء فؤاد على عادته ، وأبصرته إحسان من نافذتها فكاد قلبها يطير شوقا وفرحا . ولم تعلم أن خالها قاعد يتربص له فى كشك البواب ، فما كاد فؤاد ينتهى من تقبيل الجدران ويهوى على عتبة الباب ليلثمها حتى سمع حركة فنهض واقفا فإذا هو أمام خالها وجها لوجه .

ـــ ماذا تصنع هنا يا لص الأعراض ؟

رنت هذه الكلمة فى سمع إحسان فارتدت إلى فراشها وفرائصها ترعد فرقا .

أما فؤاد فلم يجب مؤنبه بشىء وأراد الانصراف ولكن محمودا أدركه وأخذ بتلابيبه .

ـــ ماذا تصنع هنا ؟ أجب !

ـــ قد رأيت بعينيك ما صنعت فدعنى أنصرف بسلام .

فجعل محمود يشده من ثيابه ويسمعه كلمات جارحة وهو يتميز غيظا وينتفض حنقا ، فخطر لفؤاد أن يدفعه عنه ويبطش به لولا أنه تذكر مكانه من إحسان فأحس كأن قوة تشل يده فما زاد أن قال له بصوت خافض :

ـــ دعنى يا عم محمود أمضى بسلام .

ـــ والله لا أدعك حتى أسلمك إلى البوليس أو تحلف بالله العظيم أنك لا تعود لمثلها .

ـــ أعدك بشرفى أنى لا أعود .

ـــ لا شرف لك عندى . احلف لى بالله .

ـــ لا يمين عندى لمن لا يؤمن بشرفى !

ـــ إذن أقودك إلى البوليس .

ـــ هلم معا إلى النقطة فالجيزة قريبة .

فلما رأى محمود الجد من فؤاد أرسله من يده وقال له وهو يحاول ستر هزيمته .

ـــ والله لئن عدت لمثلها فلا تلومن إلا نفسك .

ـــ قد أعطيتك كلمتى أنى لا أعود وحسبك هذه الكلمة منى . السلام عليكم !

ـــ لا أريد سلامك .

وانصرف فؤاد وهو يقول : « وأنا لا أبالى » .

ولم ينم فؤاد ليلته تلك إلا مطلع الفجر حين انتهى من تقييد لحن كان يضطرب فى نفسه أسماه لحن (الطواف) . وسمع الليلة التالية

صوت الشاعر يتابعه بهذه الأبيات :

يَعِزُّ على الواشى طَوافِي بدارِهـا وما ضرَّه لو غضَّ ناظِرَهُ عَنِّـى ؟
أُقَبِّل مِنْ جُدرانِها فهل اشْتـكتْ إليه الأذَى يومًا فيَنْصِفَها منِّـى ؟
ولو سُئلت عما تُحِسُّ إذا الْتقَتْ بثَغْرِى لباحَتْ بالغَرام ولم تَكـنِ
قطعتُم حَبالَ الوَصْل بينى وبينَهـا فلا تحسدونى مِنْ وقوفٍ على رُكْنِ
ومِنْ مُقْلةٍ فى الدمعِ غَرقى أَرى بها خَيالَ سَنَاهَا من ستائِرها الدُّكْنِ !
ومن قُبلاتٍ فى الدُّجى أبتغى بها مِواطىءَ أَقدامِ الحبيبة بالظَّنِّ !
هَبونى امرءًا أَلْقَى على الدار ظِلَّه سَنا قَمَرٍ فى الأُفق يَجْهلُ ما يَعْنِي !
هَبُونى نسيما مَر وهنًا بدَارِكُـمْ فقرَّبَ غُصنًا فى الحديقةِ مِنْ غُصْنِ
هَبُونـىَ عُصفورًا يلـوذُ ببابِكُـمْ وَنَى بجناحَيْه بلالٍ من المُـزْنِ !
بنفسِىَ مَنْ عزَّتْ فهِمْتُ بدارهـا فأُنكره منِّـى قريبٌ لهـا مُضْنِ
أُكِنُّ له من أَجْلِها الحُبَّ والهوى ويُضْمِرُ لى مُرَّ العداوةِ والضِّغْـنِ
يحلِّفنـى أن لا أعـود لمثلهـا فقلتُ له خُذْ موثِقى ، إنه يغنـى
وأَلحظُـه شَزْرًا فيعـرضُ طيفُهـا لِعَينى فينهانى فأُكبر من جَفْنى !
خفضتُ له منِّى الجَناحَ لأَجْلها وما قَدْره قدْرى ولا سنُّه سنِّـى
ولو رامَ قتْلِى وهو ناج من الرَّدى لناولْته سيفى وقلتُ له اقتُلْنـى !

★ ★ ★

٢٣

مرت شهور وفؤاد على حاله من الألم الذى لا يعظم عن التنفيس ولا يحول دون الشدو فوضع فى خلالها أغانى جمة منها « لحن الطيف » و « لحن الذكرى » .

كان فؤاد يغنيها مع مراد فى بيته وفى الحفلات التى يقيمها بدار التمثيل العربى فيجد فيها وفى إعجاب الجمهور بها بعض العزاء .

حتى حانت ليلة زفاف إحسان فكأنما انتبه فؤاد من نوم طويل على ألم صارخ لا قبل له بحمله إذ أيقن حينئذ أن لا رجاء فى لقائها إلى الأبد !

قضى فؤاد يومها ينوء بالهم الثقيل المحتبس فى صدره الآخذ بأكظامه لا يجد له متنفسا من دمع أو شدو ، فكان يقوم ويقعد ويضطجع على فراشه ثم يستوى قاعدا ، وتكلمه أمه لتواسيه فكأنما لا أذن له ولا لسان إلا عينين مفتوحتين نائمتين كعيون الموتى لولا رأس يتحرك بهما ذات اليمين وذات الشمال ويديرهما حوله فى حيرة وذهول !

وأدرك مراد خطر هذا اليوم على فؤاد فانتظر مجيئه حتى العصر فلما لم يجىء قصد إلى بيته فحيا أمه واستأذنها بلطف أن يستصحب فؤادا إلى بيته ليسليه هناك فأذنت له وأرادت أن تشكره على كبير عنايته بابنها وجليل خدماته له فتلعثم لسانها وخنقتها الدموع .

واستطاع مراد أن يتسلل إلى قلب فؤاد فيحل عقدة لسانه فقضيا

الساعات بالعزف حينا وبالحديث حينا فى شؤون مختلفة حتى إذا أوشك أن يمس قصة إحسان من قريب أو من بعيد جذب مراد حبله فمال به إلى موضوعات أخرى .

إلى أن هدأ الليل فحملت النسمات إليهما فى سكونه نغمسات الموسيقى والغناء من قبل الروضة ، فجحظت عينا فؤاد واعترته هزة كهزة المقرور وتتابعت أنفاسه وجعل يعض شفتيه ويبلع ريقه . وفطن مراد حينئذ إلى خطئه إذ لم يذهب بفؤاد ليسمر معه فى مكان آخر لا تصل إليه تلك النغمات ، فلم يدر بخاطره قبلا أنها تستطيع أن تسافر على أجنحة النسيم من الروضة إلى المنيل بهذا اليسر . وليس فى وسعه الآن أن يقترح الخروج من البيت لئلا يشعر فؤاد بغرضه ولأن البرد كان شديدا فلا موضع للتمشى فى مثل ذاك الجو .

ولحظ مراد أن فؤادا يرهف سمعه إلى تلك النغمات الآتية من بعيد كأنها همسات فى آذان الليل ، فحاول سدى أن يصرفه عن ذلك بشتى الحيل . وانقطع الغناء حينا فتنفس الصعداء واستطاع أن يستدرج جليسه إلى الحديث فى شؤون شتى . ولكن ما لبث الغناء أن عاد بعد ذلك فإذا هما يسمعان صدى يضعف ويقوى لأغنية (ليلة النهر) فعاد فؤاد إلى وجومه وبقى كذلك هنيهة ثم انفجر باكيا ينتحب ، فدنا منه مراد ووضع يده على ظهره يواسيه .

— ماذا بك يا فؤاد ؟ ألا يسرك أن يتغنى الناس بأغانيك ؟ ألا ترى كيف أحبوها وشاعت فى كل مكان ؟

فرفع فؤاد رأسه والدموع فى عينيه وقال بصوت مرتعش : « ألا تذكر يا أستاذى ما قال لنا خالها ذلك اليوم ؟ هأنذا قد حضرت ليلة

فرحها ! » ولم يتم كلمته حتى مال على كرسيه فوقع على وجهه فى الأرض فأسرع مراد فحمله إلى سريره وأخذ فى إسعافه ، ولم ينتبه لانقطاع الصدى بغتة حينذاك لما شغله من أمر صديقه .

ولو كان من شهود حفلة العرس القائمة فى الروضة إذ ذاك لرأى العروس التى شاءت الأقدار أن تكون حبيبة صديقه وأن تقسم لغيره قد وقعت من أريكتها مغشيا عليها وحملت من السرادق إلى الدار وجعل الحضور يتساءلون عن السبب ولا يعلمه إلا الله ونفر من أهلها الأدنين. وقد تكدر صفو الحفلة وذهب جزء كبير من رونقها وبهائها وأسف أولئك الذين طربوا لتلك المغنية الشابة ذات الصوت الملائكى أنها لم تكمل لهم تلك الأغنية الرائعة التى تلقتها عن أسطوانة حديثة ظهرت للمطرب الشاب فؤاد حلمى .

ولما صحا فؤاد من غيبوبته نهض كأن لم يكن شىء مسه . وجلس قليلا يتحدث إلى أستاذه ثم استأذنه فى الانصراف إلى بيته لينام فخرج يودعه إلى باب الحديقة .

وقد اطمأن قلبه لما رأى على صديقه من مظاهر الطمأنينة والسلوان فلم يشأ أن يوصله إلى بيته لئلا يشعر بأنه فى حاجة إلى الحماية والإيناس فيذكره ذلك بما وقع له من الغيبوبة آنفا .

وأوى مراد إلى سريره لينام ولكنه لم يكد يغفو حتى انتبه مذعورا من كابوس مزعج رأى فيه كأن رجلا يشير بيديه إلى جسر عباس ويصيح بأعلى صوته : « أدرك صاحبك ! أدرك صاحبك ! » فهب من مرقده فزعا وارتدى ثيابه عجلا وصاح بخادمه أن ينتظره حتى يرجع ، وخرج مهرولا وهو يسوى المعطف على صدره وانطلق صوب الروضة فطوى

الشارع فى دقائق ثم ركض ذات اليمين حتى دنا من جسر عباس فطامن من سيره عندما لمح فى نور القمر شخصا واقفا على الحاجز الأيمن من الجسر عند منتصفه . فقصد الرصيف الأيسر ومشي فيه متمهلا وقلبه يخفق شديدا إذ تحقق ما توقعه من المكروه وتبين له أن فؤادا هو الواقف هناك . فظل يمشى الهوينا حتى صار خلف ظهره ، فما ملك نفسه أن عبر عرض الجسر كالسهم المنطلق إلى حيث وقف فؤاد فأمسك بذراعيه ونظر إلى وجهه فإذا هو شاحب وإذا عيناه زائغتان قد اتسعت حدقتاهما فصار منظرهما مخيفا .

— ماذا تصنع هنا يا فؤاد ؟

— لا شىء ... صدقنى لا شىء ... إنما كنت أنظر إلى أشعة القمر على وجه النهر ... انظر يا أستاذى ألا تراه هادئا جميلا . ولكنه فيما أحسب باردا جدا كالصقيع ! ليت شعرى لماذا لا يكون نور القمر دفيئا كضوء الشمس ؟

— هل تعنيك هذه المسألة كثيرا يا فؤاد ؟

فأجفل فؤاد إجفالة خفيفة وقال : « لا يا سيدى ، إنما عن لى الساعة هذا السؤال » .

— غدا سأعطيك كتابا تقرأ فيه هذه الحقيقة الفلكية وأمثالها .

— غدا ؟

— نعم غدا . أم تريده الآن ؟

— الآن ؟ لا يا أستاذى . قد قلت لك إنها مسألة عنت لى عرضا ولا تهمنى كثيرا .

— هلا أخبرتنى آنفا أنك لا تريد النوم ، إذا لرافقتك فى مسيرك هذا .

ـــ بل كنت أريد أن أنام !

ـــ فما عدل بك عن البيت ؟

ـــ اشتقت إلى النيل ... اشتقت إلى هذا النهر الجميل !

ـــ إنما تجمل نزهات النيل فى ليالى الصيف لا فى هذا البرد القارس .

ـــ أجل ، ما أجمل ليالى الصيف ولكنها لا تزال بعيدة يا أستاذ !

ـــ كل آت قريب . هيا بنا نرجع إلى بيوتنا يا فؤاد .

ـــ ما أرانى قضيت وطرى من النزهة بعد . ألا تدعنى هنا قليلا وتنصرف فالبرد شديد عليك .

ـــ الساعة الآن واحدة وأمك تنتظر مجيئك ولا ينبغى أن تقلق بالها

وأخذ مراد بيده فمشى به راجعا إلى المنيل وهما صامتان حتى وقفا أمام بيت فؤاد فنظر مراد إلى الشعاع المنبعث من النوافذ المغلقة وقال : « انظر ، هذه والدتك البارة ساهرة تنتظرك . دعنى أراك غدا يا فؤاد » .

قال فؤاد وهو يصافحه مودعا : « إن شاء الله ! » .

ولم ينصرف مراد حتى سمع صرير الباب وصوت إغلاقه .

٢٤

بعث مراد السعيد خادمه عصر اليوم التالى إلى فؤاد يستزيره فقال فؤاد للخادم : « قل لسيدك إنى آت إليه بعد المغرب لأنى الآن متعب أريد أن أنام » ولما أراد الخادم الانصراف استوقفه وناوله ورقة وقال له « خذ هذه فأعطها لسيدك » .

وقالت له أمه عقب انصراف الخادم : « إى والله يا بنى أرح جسمك قليلا .. إنك لم تنم البارحة نوما كافيا ولا نمت بعد الظهر وقضيت نهارك كله تنقر وتدندن . أما تتعب من هذا الشغل يا بنى ؟ » .

قال لها وهو يستلقى على فراشه : « سأترك هذا الشغل قريبا يا أماه » .

ـــ أتتركه بعد أن نجحت فيه وبدأت تشتهر فى الناس ؟ لا يا بنى ، إنما أريد أن ترفق بنفسك قليلا ولا تكلفها فوق طاقتها . نم يا حبيبى الآن .

وسوت اللحاف عليه وتركته ينام .

ولما غربت الشمس انتظر مراد مجىء فؤاد وكان قد كرر توقيع قطعة اللحن التى أرسلها فؤاد مع الخادم إليه وقد أعجب بها واستبشر بها خيرا واتهم نفسه بالمبالغة فى مخاوفه فيما يتصل بصديقه . فهذه القطعة الجديدة وإن كانت تعبر عن ألم صارخ ويأس قاتل وتنطوى على معانى الرحيل والوداع إلا أن اهتمام فؤاد بوضعها وكتابتها لا يدل على أنه ينوى حقا ما هجس بباله .

ولكن أذن مؤذن العشاء ولما يأت فؤاد ، فعاوده القلق وأرسل خادمه ثانية إليه فعجبت أمه لأن ابنها قد خرج من قبل قاصدا بيت مراد . فاشتد قلق مراد لما عاد الخادم إليه بهذا الخبر . فأخذ سيارته الصغيرة وراح يبحث عن صديقه بعد أن أمر خادمه باستبقاء فؤاد إن جاء حتى يعود . وطاف مراد بكل مكان يتوقع أن يجد صاحبه فيه وكان يعود من حين إلى حين إلى بيته ليرى هل جاء فؤاد .

أما فؤاد فحين خرج من بيته بعد المغرب ذهب يزور خاله فى بيته

بحي السيدة زينب وكان خاله قد صالحه ورضى عنه قبل ذلك بمدة يسيرة إذ لقيه صديق له فجعل يهنئه بنجاح ابن أخته ونبوغه وهو لا يعلم أنه مقاطعه ، وقال له إن ابن أختك سيبنى لمصر مجدا فنيا عظيما ، فما لبث بعد ذلك أن وصل فؤادا ورضى عنه .

قضى فؤاد سويعة عند خاله ثم استأذنه ومشى حتى وصل إلى شارع السد البرانى فوجد مقهى بلديا حقيرا فانتبذ له ركنا فيه وهو يرى الناس يدخلون ويخرجون ويضحكون ويلعبون ويتشاجرون ويقبلون فى الشارع ويدبرون وكأنه يرى خيالات تتحرك أمامه ، ويدخن اللفافة تلو اللفافة فتخلط أنفاسها بزفراته وتنهداته .

مضى شطر من الليل والحيرة لا تزال تأخذ عليه مسالك الفكر فلا يرى وجه رأيه ولا يكاد يعرض له خاطر حتى ينسخه خاطر آخر . ولكن هذه الخواطر على تنازعها وتصارعها واختلاف وجهاتها كانت جميعا كأنما تسير به حثيثا نحو الفكرة السوداء ، فكأنهن عقد شتى ليس لها إلا حل واحد . وفى هذه الغمرة تذكر اللحن الأخير الذى وضعه ذلك اليوم ، فعز عليه أن يبقى عاطلا بدون شعر يكسوه ويحليه ، وسرعان ما ذكر الخرابة وصاحبها الشاعر فحنت نفسه لزيارتها وتوديع صاحبها ومر بخاطره ما قيل فى بعض الروايات من إلقاء الشاعر بنفسه فى البقعة المناوحة لبيته من اليم ، وتلألأت هذه الصورة مليا فى ذهنه فكانت كالمنارة التى تهتدى بها وتتوجه إليها سفينته التائهة فى ظلمات البحر !

واتخذ سبيله أمما من القصر العينى نحو المنيل — وكلما سنح لعينه خيال أستاذه مراد السعيد نفاه عنه وطرده من ذهنه كأنه رقيب ، قد اتخذ من القمر واشيا له ، يرصد طريقه فى سكون الليل إلى زيارة من

يهوى — حتى بلغ الخرابة فدخلها وجال فى أركانها ثم خرج منها فأطل على النهر ونظر إلى مياهه مليا ثم عاد إليها فوقف فى ركن منها فأخذ يدندن بلحنه بحيث يسمع نفسه . وردده مرارا فلم يسمع شيئا حتى يئس من سماع الصوت فكف عن الترنم وعزم على التوجه إلى النهر وكأنه يقول فى نفسه « لا أبالى الليلة سمعت أو لم أسمع ! » .

ولكنه لم يكد يخطو نحو الفجوة المؤدية إلى النيل حتى رأى سواد شخص يعترض طريقه إليها فظن أول الأمر أنه مراد السعيد قد جاء يفتقده كما فعل الليلة الماضية ، بيد أن الشخص تقدم قليلا نحوه وسقط عليه شعاع من زاوية فى الخرابة فأضاء وجهه فإذا هو وجه لم يره فؤاد فيما يرى اليقظان قط وإنما رآه مرة فى الحلم ! فجمد فى مكانه وطفقت موجة عاتية من القشعريرة تتردد بين فرعه وقدمه وظل فاغرا فاه وعيناه ثابتتان ما تطرفان ترنوان إلى ذلك الوجه الشاحب الهزيل ذى العينين الحزينتين الذليلتين كأنما تستعطفانه أو تستجديانه .

— لا تخف يا فؤاد منى فإنى صديقك الشاعر تعرف عينك وجهى ولا يجهل سمعك صوتى . جئت لأواسيك كما واسيتنى ولأفرج عنك كما فرجت عنى ! .

وظل فؤاد على حاله صامتا .

— إن كنت تكره أن ترى وجهى فسأختفى عنك وأكلمك من وراء الحجب ! .

— كلا لا تختف عنى . إن وجهك يؤنسنى وإنى بحاجة إلى عونك .

— بل أنا المحتاج إلى عونك . حذار يا فؤاد من هذا الذى عزمت عليه !

ـــ أو قد عرفته ؟

ـــ نعم وأنا الذى حال بينك وبينه البارحة .

ـــ ذاك الأستاذ مراد .

ـــ أجل ، أنا أيقظته ليدركك .

ـــ ألست تحبنى ؟ أما تحب أن أستريح ؟

ـــ بلى يا فؤاد .

ـــ فما حملك على ما صنعت ؟

ـــ خشيتى أن يغضب الله عليك وتخلد فى العذاب !

ـــ أهذا ..... ؟

ـــ كلا . ليس هذا ما حل بى . إنى ما قتلت نفسى فلا تصدق ما يقول الناس .

ـــ فماذا ... ؟

ـــ سأروى لك قصتى فتعرف سر محنتى وتدرك أى عون قدمت لى وأى عون أرجو بعد أن تقدم لى . ألا تحب أن تسمع هذا منى ؟

ـــ بلى .. طالما تمنيته .

ـــ لقد أحببت فى حياتى ابنة عم لى كما أحببت يا فؤاد ، وكانت تحبنى كما تحبك صاحبتك ، فزوجت لغيرى كما زوجت لغيرك . وكنت شاعرا كما أنك موسيقى ، فقلت فيها قصائد جمة عبرت بها عن أفراحى وآلامى إلى أن غلبنى اليأس وأضنانى السقم ، فلما حضرنى الموت عمدت من فرط يأسى إلى ديوان شعرى فأحرقته وأمرت برماده فذروه فى النهر . وكنت أظن أن الموت سيريحنى من عذابى فأنام مطمئنا فى قبرى حتى يأذن الله ببعثى فأحشر فى زمرة الشهداء فقد

عففت فى حبى ولم أدنسه بسوء .

ولكنى ما كدت أوضع فى لحدى حتى شعرت بجميع الأزمات النفسية وشتى الإحساسات التى مرت بقلبى فى مختلف أيام حياتى فنفستها عنه بأشعارى قد عادت فاحتبست فى صدرى جملة واحدة فبقى إصرها ينقض ظهرى ويقض له مضجعى طوال القرون التى مرت على وفاتى فما أنعم براحة ولا قرار . ومن أجل ذلك أخرج فى كل ليلة فأطوف بمواطن ذكرياتى كالهائم الشريد . وما زال هذا حالى حتى عرفتك يا فؤاد فنفست عن قلبى بعض ما احتبس فيه بتلك القصائد التى كنت أتابع بها ألحانك فتعيها عنى وتعيدها إلى الوجود . ولقد حططت عنى جزءا كبيرا من حملى وبقى جزء منه كبير لا يزال يؤودنى ويمنعنى من القرار فى قبرى . فأتمم يا فؤاد صنيعك معى واصبر على ما أصابك حتى يجعل الله لك منه مخرجا . فوالله لئن اخترمت حياتك بيدك لأبقين فى عذابى هذا حتى تقوم الساعة ولتخلدن أنت فى العذاب الأكبر إلى أبد الآبدين !

فصاح فؤاد : « لا . لن أقتل نفسى ! لن أقتل نفسى ! سأصبر ! سأصبر ! » .

— الآن اطمأن قلبى فانصرف يا صديقى راشدا فإن صديقا آخر يحبك كما أحبك قلق عليك الساعة يبحث عنك .

— واللحن الجديد ألا تسمعنى أبياته ؟

— ذاك لحن الوداع ستسمعه آخر شىء تسمع منى ، فيكون آية انتهاء ما عندى لا ترانى بعده ولا تسمع صوتى حتى تلقانى فى دار الحق .

ولم يكد فؤاد ينتهى من سماع هذه الكلمة الأخيرة حتى صك سمعه صوت كصوت مراد السعيد يقول له : « أنت هنا يا فؤاد وأنا أبحث عنك فى كل مكان ؟ » .

وإذا مراد أمامه لا يدرى هو كيف اختفي الشيخ وحل مراد مكانه !

— أين كنت من قبل فقد جئت هنا مرتين فما وجدتك ؟

ولم يجبه فؤاد بشيء وإنما اندفع إليه فعانقه وهو يبكى بكاء الطفل إلى أمه فجذبه مراد ومشى به خارج الطلل حتى أركبه السيارة فانطلقت بهما إلى بيته حيث قص عليه فؤاد كل ما جرى له وروى له مراد كل ما صنع .

٢٥

انقضى على هذه الحوادث عامان وضع فيهما فؤاد أكثر ألحانه وأقواها فكانا أخصب أعوامه نتاجا . وعلت شهرته فى الناس فأصبح اسمه فى أول أسماء المطربين والمطربات وعظم إيراده من حفلاته الخاصة والعامة ومما سجله فى الأسطوانات من أغانيه حتى كثر المال فى يده فما لبث أن استأجر قصرا كبيرا فى المنيل أثثه تأثيثا فاخرا وخصص جناحا منه لسكناه مع والدته والجناح الآخر لأعماله ومقابلة ضيوفه وزواره . وسخا بالمال على أفراد فرقته حتى حسنت أحوالهم ، وأغدقه على خاله خاصة وعلى أقاربه عامة فكانوا يفخرون به ويدعون له .

أما أمه فقد رأت من نجاح ابنها وسعادتها به فوق ما كانت تتمناه مما

لم يخطر لها من قبل على بال . فكانت تحمد الله على ما أولى ابنها من البركة والخير ولا تنسى قط أن تثنى على صديقه الأستاذ مراد السعيد لما له عليه وعليها من الفضل العظيم .

واتفق فى خلالهما أن انتشر المذياع فى مصر انتشارا كبيرا وأنشئت محطة الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية . فتعاقدت مع فؤاد على تسجيل بعض أغانيه لها وإذاعة بعضها منها فكان ذلك عاملا قويا فى توسيع آفاق شهرته .

وكان فؤاد فى أثناء ذلك يبدو فيما يرى الناظر سعيدا بما نال من النجاح الكبير والصيت الطائر . ولكن خواصه يعلمون ما ينطوى عليه من ألم دفين هو الوقود الذى لا يغيض ينبوعه لذلك الدينام الهائل تفصل عنه تلك الإشعاعات العبقرية الساطعة !

وكان لأغانيه التى يغنيها هو أو يسمعها مما سجل له أثر فى نفسه يختلف باختلاف الظروف والأحوال ؛ فهى طورا تهيجه وتثير أطرابه وأشجانه . وطورا تنفس من كربه ويجد فيها شيئا من العزاء والسلوان .

وسمع لحن (الحيرة) من المذياع ذات يوم فهاجت شجونه واشتد به الهم فجعل يقلب أوراقه القديمة يتشاغل بالنظر فيها حتى عثر بينها على ورقة حمراء هى ورقة الإعلان التى احتفظ بها منذ ليلة الكازينة من أربع سنوات مضت ، وبين صورها صورة الراقصة إحسان زكى فتذكر ما جرى له معها وانتفضت حوادث تلك الليلة وما تلاها حية أمام عينيه .

وما إن جاءت العشية وخرج من بيته حتى ساقته سيارته إلى شارع عماد الدين ووقفت به أمام تلك الكازينة فنزل وقصد شباك التذاكر

فسحب له ورقة إعلان ونظر فيها بشيء من اللهفة فوجد صورة إحسان زكى وقرأ تحتها إنها عادت حديثا من الأقطار الشقيقة بعد غياب طويل . وزوى وجهه عن الشباك حين لحظ التذكرى يحدق فيه ، وقطع له تذكرة بنوار فدخل .

وما استقر به مجلسه فى البنوار ووجد نفسه فى ذلك الجو الذى لا يرتاح قلبه إليه حتى أخذ يسائل نفسه ويتعجب كيف يحضر هناك ولأى شيء ؟ أليرى الراقصة إحسان زكى فماذا يريد منها ؟ إنه لا يدرى على التحقيق ماذا يريد . ولكنه لما بدت الراقصة فى هلاهيلها كاسية كعارية وطفقت تتثنى وتتخلع فى حركاتها وتغمز بعينيها ذات اليمين وذات الشمال ، والحضور يرفعون إليها آيات إعجابهم بها ورضاهم عنها بكلمات بذيئة مندية فيدفعها ذلك إلى المبالغة فى تغنجها وتخلعها — دبت فى نفسه غيرة شديدة عليها وشعر كأنما هذه حبيبته إحسان نفسها ترقص عارية أمام الناس تنتهب محاسن جسدها العيون . وجعل يتلفت ويدير طرفه فى صفوف المتفرجين فيرى عيونهم تلتهب بنيران الشهوة وشفاههم تتلمظ ويسيل لعابها ، فكاد يصيح فيهم : « غضوا أبصاركم يا ملاعين ! » وود لو نزل إلى المسرح فألقى معطفه عليها ليسترها !

ولم يستطع صبرا فقام إلى مشرب الكازينة فدعا أحد الندل ونفحه بمال ثم أوعز إليه أن يدعو الراقصة إليه فى بنواره حين تفرغ من رقصتها فانطلق النادل فرحا .

* وأقبلت الراقصة لترى الصيد الجديد الذى حدثها عنه النادل بما يسرها وأراها الريال فى كفه فأمرته أن يوافيها إلى البنوار بزجاجة

شمبانيا ، فجلست إلى فؤاد كما تجلس إلى غيره من الصيود أو الصياد المحترمين . فلما تأملت وجهه دهشت لما رأت من الشبه العظيم بينه وبين الصور التى تراها للمطرب الكبير فقالت له :

ـ أنت المطرب الأستاذ فؤاد حلمى ؟

فقال لها وهو يبتسم : « بل أنا فؤاد حلمى الذى قاضيته يوما إلى قسم البوليس ففصلت بيننا شهادة ميلادك . ألا تذكرين ذلك ؟ » .

بقيت هنيهة فاتحة فمها من الدهشة إذ ذكرت ذلك الحادث الذى ذكرها به ، وعجبت من نفسها كيف لم تفطن من قبل إلى أن هذا المطرب الذى صار علما فى القطر إنما هو ذلك الشاب نفسه الذى عاكسها ليلة فظنته مجنونا . ففرحت به وشعرت بالزهو يخالطها لجلوسها مع هذا الفنان الكبير .

ـ هذا لطف منك يا أستاذ إذ تذكرنى بعد هذا العهد الطويل وبعد أن صرت رجلا عظيما .

ـ لا تقولى يا أستاذ بل قولى يا فؤاد فهذا أحب إلى . وسأدعوك فتحية إذا سمحت فهو اسمك الأصلى .

ـ أو تذكر هذا أيضا ؟

ـ أذكر كل شىء يا فتحية : أذكر اسم أبيك والفستان الأصفر الذى كنت لابسته يوم ذاك ، والقبعة المائلة لجنب ، والساعة الذهبية التى على معصمك !

خطر ببال الفتاة عندئذ أن اهتمامه الشديد لابد أن يكون له سبب . أتراه يحبها ؟

ـ شىء عجيب يا أستاذ .. عفوا .. يا فؤاد . لكن خبرنى أين



هذا لطف منك يا أستاذ أن تذكرني بعد هذا

العهد الطويل

حبيبتك الضائعة ؟ ألم تعثر عليها ؟

فاضطرب فؤاد قليلا ولكنه تجلد وتكلف الابتسام وهو يقول : « بلى وجدتها بعد ذلك ولكنها ضاعت منى مرة أخرى » .

— ألا تبحث عنها مرة ثانية ؟

فلم يستطع فؤاد أن يخفى الألم الذى ظهر فى وجهه وفى صوته حين قال :

— لا أمل فى الحصول عليها يا فتحية . قد ضاعت منى إلى الأبد .

وجاء النادل بزجاجة الشمبانيا فدهشت إذ عرضت عليه كأسا فأباها .

— أتريد صنفا آخر ؟

— كلا ، لا أشرب الخمر مطلقا .

فبدا عليها كمن أسقط فى يدها لما رأت امتناعه عن الخمر . وأدرك ما فى نفسها فقال للنادل : « هات لى فنجان قهوة وقائمة الحساب ! » .

فسرى عنها قليلا وقالت :

— أما تشرب الخمر وأنت فنان عظيم ؟

— إنها حرام ولا أميل إليها .

— ولكن الفنانين يشربونها ويرون أن نشوتها تفتق أذهانهم وتساعدهم فى فنهم .

— هم كاذبون أو مخدوعون بهذا الوهم . إن للفن نشوة لا تجتمع مع نشوة الخمر . والناس يا فتحية قد أساءوا إلى الفن فأدخلوا فيه ما ليس منه . ألا ترين أنهم يعتبرون التعرى وهز البطون فنا ؟

فبدا على وجهها الغضب وقالت : « إنك تلمزنى بهذا وتنكر على صناعتى » .

— بل أشفق عليك منها ، وما أحسب أنها تروقك ، فهذا الحسن الرفيع لا ينبغى أن يعرض هكذا على الناس !

فقالت وقد ملكها الزهو : « هل عندك لى يا فؤاد صناعة خير منها » ؟

— نعم .

— ما هى ؟

— كم تكسبين من عملك فى الليلة الواحدة ؟

— ما يعنيك من هذا ؟

— أجيبينى وسأقول لك .

— نحو جنيه : خمسين قرشا من الصالة والباقى من الفتح .

— أرأيت لو عرض عليك شخص أربعين جنيها فى الشهر على أن تكفى عن هذه المهنة الشائنة أتوافقين ؟

— وماذا أصنع لذاك الشخص ؟

— لا شيء .. تعيشين فى منزلك عيشة محترمة حتى يأتيك زوج صالح .

— أريد أن أعرف أولا من يكون هذا الشخص .

— أنا ؟

فجعلت تتفرس فى عينيه مليا ثم قالت : « إذن أقبل » .

— فهيا بنا .. قومى الآن فخذى أشياءك والحقينى خارج الكازينة لأوصلك بالسيارة إلى منزلك .

فبدا عليها شيء من التردد فأخرج لها ورقتين بعشرين جنيها وقال لها :

ــ خذى هذه تحت الحساب .

فارتبكت الراقصة وقالت : « لا ليس الآن حتى أؤامر نفسي وينتهى العقد الذى بينى وبين الصالة .

ــ متى ينتهى ؟

ــ آخر هذا الشهر .

فدس الورقتين في يدها وأرغمها على قبولهما وانصرف بعد أن اتفق معها على أن يأتيها آخر ليلة فى الشهر ليأخذها معه .

★ ★ ★

وفى الليلة الموعودة حضر فؤاد بعد مضى شطر من البرنامج فالتمس إحسان الراقصة فوجدها جالسة إلى شاب فى البنوار المجاور لبنواره فاغتم وشعر بالغيرة تنهش قلبه كما لو رأى إحسان حبيبته تغازل ذاك الرجل ، وأخذ يتسمع الحديث بينهما فسمعها تقول له وهى تضحك : « أجئتنى الآن بعد أن هجرتنى طوال هذه المدة ؟ »

ــ بل أنت التى هجرتنى برحيلك إلى العراق .

ــ قد عدت من زمان فما سألت عنى .

ــ والله ما علمت بعودتك إلا قريبا .

ــ لابد أن حبيبة أخرى شغلتك عنى .

ــ لا والله وإنما تزوجت .. أما علمت أننى تزوجت ؟

ــ لا أصدقك يا كذاب !

ــ والله لقد تزوجت .

ــ فلماذا تجيء عندى ؟

— لم أستطع الصبر عنك يا حلاوة القلب .

— أتزوجتها دون أن تحبها أم أحببتها وتخونها الآن معى ؟ يا لكم من خونة يا معاشر الرجال ؟

— صدقينى يا إحسان ما أحببتها وتزوجتها إلا لأنها تشبهك !

— كذاب خائن ! لم عدت إلى وقد وجدت من تشبهنى ؟

— إنها تشبهك كثيرا ولكن لا أجد عندها هذا اللهيب الذى أجده عندك .

— لكن فات الأوان يا صبرى .

وهنا اضطرب فؤاد وتململ فى مجلسه ولكنه حبس أنفاسه منصتا .

— فات الأوان لماذا ؟ ألأننى تزوجت ؟ ماذا يهمك زواجى ؟ إنى لا أحبها كما أحبك .

— ليس هذا ما أعنى . ولكنى اعتزمت أن أعتزل هذه المهنة .

— كيف ومن أين تكسبين قوتك وقوت إخوتك الصغار ؟

— لن أكسب قوتهم بعد الآن من عرض جسدى على الناس . رجل طيب عرض على نفقة حسنة على أن أكف عن مزاولة الرقص وأعيش عيشة شريفة حتى أتزوج .

— لابد أنه يريد أن يتزوجك .

— ربما .

— متى تذهبين إليه ؟

— سيأتينى هو الليلة فيأخذنى معه .

— ويل لى ، أحرم هذه الشفاه بعد الليلة ؟

— لا يا صبرى .. لا تمسنى .. انتهى هذا العهد .

ولم يطق فؤاد صبرا فاقتحم عليهما البنوار فوجد صبرى يحاول أن يقبلها وهى تمانع ممانعة رفيقة ، فلما رأياه أجفلا واستويا فى مجلسهما .

— ماذا تريد يا هذا ؟

— قد أخبرتك إحسان بما أريد .

وانبرت إحسان تقول : « هذا الأستاذ فؤاد حلمى المطرب الكبير يا صبرى بك » .

فنظر صبرى محملقا إليه ثم قال له : « أهو أنت ؟ عجبا لك ! أموكل أنت دائما بملاحقتى والجرى خلفى ؟ بالأمس تنافسنى فى خطيبتى واليوم فى خليلتى ! أضاقت عليك الدنيا الواسعة يا رجل ؟ »

فأعرض عنه فؤاد والتفت إلى الراقصة قائلا : « هيا بنا يا فتحية ! » .

فبدره صبرى قائلا : « ما هذه الوقاحة ؟ أتقتحم على بنوارى بدون إذن ؟ » .

— ليس لمثلك كرامة تصان !

— اخرج من هنا !

فلم يلتفت إليه فؤاد وإنما قال لها : « سأنتظرك يا فتحية فى هذا البنوار المجاور فالحقى بى » .

خرج وترك الفتاة فى حيرة شديدة لا تدرى ماذا تصنع .

قال لها صبرى : « أتذهبين مع هذا الشاب المتهوس ؟ » .

فلم تجبه وظلت نهبا لخواطرها ، فقد علمت حينئذ أن الفتاة التى تزوجها صبرى هى حبيبة فؤاد الضائعة ، فشعرت برثاء شديد له وعز

عليها أن يحرم مثله الفتاة التي يحبها ذلك الحب الصادق ليتزوجها خائب مثل صبرى لا يحبها ولا يعزها . كما شعرت بكره شديد لصبرى ورغبة فى الانتقام لفؤاد منه ومن تلك الفتاة التى آثرت هذا الغنى الداعر على ذاك النابغة المستقيم ، وترددت أتذهب لفؤاد الذى تشعر أنها لا تستحقه وأن اتصالها به سيضره فيسلم بذلك صبرى من شرها ويخلص لزوجته الغادرة تتمتع به ، أم تنقذ فؤادا من نفسها وتبتلى صبرى حتي تنحدر به إلى الهاوية وتقضى على حياته الزوجية انتقاما لهذا الفنان المظلوم ؟

ثم استقر عزمها على هذا الرأى الثانى فاستأذنت صبرى وقامت إلى فؤاد فى بنواره فقالت له : « أعفنى يا أستاذ مما وعدتك به . لقد راجعت نفسى فوجدتنى لا أستطيع قبول ما عرضت » . وجعل فؤاد يراجعها ويلح عليها ولكنها أصرت على الرفض . فقام فؤاد مغضبا فقالت له : « إنى آسفة لأنى قد تصرفت فى المبلغ الذى أعطيتنيه وسأرده لك حينما يتوفر عندى » .

فلم يزد على أن قال لها : « ما أعطيته لك لأسترده منك » وانصرف دون أن يودعها .

طفقت إحسان الراقصة بعد ذلك تتدلل وتتثاقل على صبرى فيشتد هيامه بها . وامتنعت أن تمكنه حتى من تقبيلها زاعمة له أنها لن تبقى فى مهنة الرقص وأنها تريد زوجا أو خليلا يعولها ويكفيها وأنها تؤثره هو إن شاء وإلا فإنها ستلحق بفؤاد . وما زالت به كذلك حتى انخدع بكلامها فوعدها بتحقيق بغيتها : ثم ما لبث أن استأجر لها منزلا بالزمالك فصار يختلف إليه كل ليلة . وكانت دائما تهدده باللحاق

بفؤاد إذا قصر فى الصرف عليها فأعوزه المال فاضطر إلى اختلاس مبلغ كبير من مال أبيه فلما علم أبوه بذلك وبأمر الراقصة طرده من بيته وتبرأ منه .

وكان عاكف باشا يحب إحسان ويعزها ويعاملها كابنة صلب ، وذلك لشدة إعزازها له وعنايتها بخدمته وتوفير راحته . وقد زاد حبه لها بعد ما ولدت لابنه غلاما تعلق به قلبه تعلقا شديدا فلم يوافق على رغبته فى اللحاق بأهلها وتمسك بها لتبقى مقيمة عنده من أجل حفيده الصغير .

وكانت إحسان قد علمت قبل ذلك بسوء سلوك زوجها وفساد سيرته ، وجعلت تؤنب خالها وأمها لأنهما أكرهاها على الزواج بمثل هذا السكير الداعر . أما أمها فتألمت لمصاب ابنتها . وأما خالها فلم يكترث لأنه قد أفاد وما زال يأمل الاستفادة من جاه عاكف باشا ليسعى فى الترقية ، فكان يقول لها إذا أكثرت عليه : « الزواج قسمة ونصيب ، وما أردنا لك إلا الخير ، وزوجك لابد يوما راجع عن غيه . وأنت التى دفعته إلى هذا السبيل بإعراضك عنه وعدم حبك له . وهو على كل حال من أسرة كبيرة محترمة وخير لك ألف مرة من هذا المغنى الذى تحبينه » . ويمضى فى مثل هذا القول فلا تجيبه بغير الدموع .

والحق أنها استراحت لما تخلصت من وجود زوجها معها فى البيت ، فقد كانت لا تطيقه ، ولكنها على ذلك تألمت لما وقع منه ، فغرامه بالراقصة فضيحة لم تنج هى من سوء قالتها ولم تسلم من أحاديث الناس ، فكان ألمها مضاعفا . ولكنها صبرت على مصابها ووجدت فى طفلها شوقى الذى تسميه هى فى سرها باسم حبيبها شيئا

من السلوى فاستمر مريرها .

على أن صوت فؤاد كلما سمعت أغانيه في المذياع كان يهيج شجونها ويثير آلامها إذ يذكرها بمواقفه معها وينقل إليها صرخات قلبه وحسرات فؤاده ، وكأنما تراه أمامها يتلوى من الألم ، وتتقرح جفونه من السهد والبكاء حتى تكاد تحس لفحات أنفاسه الحارة على وجهها . ويشتد خطبها حين تسمعه في ملأ من الناس فلا تلبث أن تقوم من مجلسهم فتخلو إلى نفسها ترسل الزفرات وتذري الدموع . وربما اشتد بها الكرب فوضعت أصابعها في أذنيها لئلا تسمعه فيأبى الصوت إلا أن يتسرب إلى سمعها ويرن في قلبها .

أما صبري فقد ظل مع الراقصة في البيت الذي استأجره لها حتى نفد ما لديه من النقود . وعندئذ تنكرت له وعزمت على ترك المنزل فقال لها : « أتريدين أن تلحقي بهذا الموسيقي اللعين ؟ » فلم تطق صبرا على مقاله الجارح في حق فؤاد فأخذت تسبه وتقول له : « والله لقلامة من ظفر فؤاد أشرف منك . أظننت يا مخدوع أنني أحببتك قط ؟ إنما أردت أن أنتقم له منك وقد بلغت الآن ما أردت » . فغلى الدم في رأس صبري وركبه الشيطان فعمد إلى زجاجة خمر فارغة ليضربها فصاحت مستغيثة بأعلى صوتها فأهوى بالزجاجة على أم رأسهافسال الدم على وجهها وثيابها وسقطت على الأرض ، وأراد أن يجهز عليها ولكن الجيران اقتحموا الباب فأراد الفرار فأمسكوه حتى جاء الشرطة فساقوه إلى السجن .

أما هي فحملت إلى المستشفى على أمل ضعيف في نجاتها ، لأن الضربة غارت بعيدا في المخ ، ولما شعرت بدنو أجلها ، سألت أن

يدعى لها فؤاد حلمى لتراه قبل موتها ، فكان لها ما سألت . وحضر فؤاد فوجدها تحتضر فرق لها قلبه وغالب عبرة تترقرق فى عينيه فاستدنته منها وبذلت جهدا كبيرا حتى استطاعت أن تفهمه بصوت متقطع ، أنها تحفظ له الجميل ، وأنها لم تقصد هجره حين هجرته ، وإنما أرادت أن تنتقم له من خصمه النذل وما زال عندها شيء تريد أن تقوله لفؤاد حين حشرجت فلفظت نفسها الأخير .

٢٦

حزن فؤاد لموت الراقصة حزنا كبيرا ، ومشى فى جنازتها فى نفر قليل من أقاربها حتى شيعها إلى مقرها الأخير . وشمل خالتها وإخوتها الصغار بعطفه وأجرى لهم راتبا من عنده ، وظل الحزن عليها ينتاب قلبه حتى وضع فى رثائها لحنا أسماه (البائسة) .

وذهب إلى الخرابة ليلا كعادته ليظفر بأبيات لهذا اللحن من صوت صاحبها الشاعر ولكنه لم يسمع شيئا بعدما اختلف إليها بضع ليال وترنم فيها باللحن مرارا ، فاغتم لانقطاع الصوت عنه ، وظل أياما مهموما حتى رأى الشاعر ذات ليلة فى منامه ، وقد استدار وجهه وفارق الغؤور عينيه وبدت عليه مظاهر الفرح والاطمئنان حتى لم يكد يعرفه فؤاد فبدره قائلا : « الآن ترنم بلحن الوداع يا فؤاد » فما كان من فؤاد إلا أن أطاعه فإذا هو يتابعه بقصيدة الوداع ، وما زال يكررها حتى حفظها فؤاد . ثم قال له : « لقد أرحتنى يا صديقى من كل ما احتبس فى صدرى فسأنام الآن مطمئنا فى قبرى ولن أهيم فى أعقاب الليل

كالشريد.أستودعك الله يا فؤاد . إنك لن تراني بعد اليوم ولن تسمع صوتي ! » .

— لكني أريد قصائد لألحاني فمن لي بها بعدك ؟

— قد انتهى ما عندي فما أقدر الآن على شيء ولكني أحسب أنك لو عالجت القريض الآن لطاوعك . زرني إن شئت نهارا لتأنس روحي بك ولكن إياك أن تزور الخرابة ليلا . إلى الملتقى يا فؤاد !

وانتبه فؤاد من نومه وكلمات الشاعر منقوشة في ذهنه ، بيد أنه لما أراد أن يتذكر الأبيات ليقيدها أعياه ذلك فلم يستحضر منها سوى شطرها الأول والأخير .

ولما قص رؤياه على مراد السعيد فرح فرحا شديدا وقال له . الآن جرب يا فؤاد .. عالج الشعر بنفسك فلا شك أنه سيطاوعك » .

— ما هذا يا أستاذي ؟ أتريد أن ترجع إلى رأيك القديم ؟

— كلا يا صديقي ، إن صاحبك الشاعر هو الذي أشار بهذا عليك . وما جربت عليه كذبا ولا أخلف لك موعدا قط . أفلا تصدقه وتطيعه فيما أشار به عليك ؟ .

فلم يستطع فؤاذ أن يعترض على مقاله بشيء .

★ ★ ★

مكث فؤاد أياما وهو يحدث نفسه بوصية صاحبه الشاعر ، ومراد السعيد يذكره بها ويلح عليه بتجربتها وهو لا يكاد يصدق أن في وسعه أن يقول الشعر ، وربما اختلى بنفسه ليعالجه فما يكاد يحمل القلم في يده حتى يضعه عنها وهو ضيق الصدر مكروب النفس .

إلى أن حدث ذات عشية أن ركب سيارته قاصدا (قهوة المثلث)

فى الجيزة ليمضى فيها ساعة من الوقت ، فلما انتهى إلى جسر عباس تشهد ثم التفت عن يمينه إلى شارع النيل لينظر نظرة عجلى فى القصر الذى تقيم فيه الحبيبة الضائعة ، فإذا عينه تلمح خادمة تخرج من سدة القصر وهى تسوق مركبة عليها طفل صغير على رأسها قلنسوة حمراء ، فما ملك أن هفا قلبه وخفف من سرعة سيارته فهى تسير هونا على الجسر وهو يلتفت خلفه حينا بعد حين حتى رأى المركبة تدور نحو الجسر فعلم أنها ستجتازه إلى الضفة الغربية ، وكان قد وصل إليها فدار بسيارته ذات اليمين حيث نزل عنها على رأس الشارع .

ووقف على حاجز الرصيف المطل على النيل ينتظر المركبة حتى مرت قريبا أمامه ، فنظر إلى الطفل فإذا هو يهش له ويمد إليه يديه فما ملك أن سار خلف المركبة حتى وقفت بها الخادمة عند مقعد هناك ، فوقف هو ورأى الطفل ما يزال يهش له فاقترب منه وجعل يلاطفه ويلاعبه والطفل يتبسم له ويتطاول كأنما يريد أن يثب إليه ويقول متلاثغا : « بابا ! .. بابا ! » .

فاستأذن الخادمة فحمله عن المركبة وضمه إلى صدره يداعبه ويقبله ثم أقعده على الحاجز وبقى يناغيه ويلاثغه إلى أن بال الطفل فأصاب طرفا من ثيابه .

فجذبته الخادمة منه وهى تعتذر إليه وتقول تخاطب الطفل : تبا لك ! أتبول على ثياب الناس يا عفريت ؟ « وفؤاد يقول لها » : لا بأس . إنما هو رشاش يسير .

وكأنما أدرك الطفل أنها تنهره فتمعر وجهه وأجهش ثم صاح باكيا .

ورأى فؤاد حينئذ أن الناس بدأوا يتنبهون له ويشيرون إليه فانتقل راجعا إلى سيارته فجرت به نحو الجيزة ولكنها لم تقف فى ميدانها بل استمرت منطلقة فى شارع الهرم وكأنما تطير به فى ذلك الجو الهادىء وقلبه يطير معها يستبقان ، وما تدرى هى ولا هو يعلم إلى أين !

وكان خيال الطفل ماثلا أمامه يثير فى نفسه معانى مبهمة يجيش بها صدره ويوسوس صداها فى سمعه . وما زال هذا الصدى الأعجم يتضح شيئا فشيئا فإذا فؤاد يترنم بجزء من لحن وإذا قول يجرى على لسانه فى ترنمه ، ولشد ما دهش إذ تبين له أنه قول موزون وأنه بيتان من الشعر ، فانتبه حينئذ أنه سائر بسيارته على غيرى هدى ، وأنه بحاجة إلى مكان يجلس فيه ليقيد ما عن له من اللحن والشعر وليعالجهما حتى يتما .

فكر بسيارته راجعا يستعجل الوصول إلى بيته .

ولم ينم فؤاد ليلتئذ حتى استوى له معظم أغنيته لحنا وشعرا فأكملها فى صباح اليوم التالى .

وكان بينه وبين مراد السعيد موعد فى العشية فلم يطق صبرا حتى تأتى العشية فكلمه بالتليفون واستدعاه إلى بيته ليسمعه مفاجأة مدهشة فأدرك مراد ما يعنى وقال له : « ما هذه المفاجأة يا فؤاد أقلت شعرا ؟ » قال له فؤاد « نعم » .

وما هى إلا دقائق حتى حضر مراد السعيد فأطلعه فؤاد على الشعر وحدثه حديث الطفل عشية أمس فلما قرأ مراد الشعر قال له : « النفس واحد يا فؤاد ! » .

— ما تقول ؟

— هذه القصيدة لا تختلف عن سابقاتها فى النفس .

— ماتعنى ؟

— لا شىء .... قل لى يا فؤاد أيهما وضعت أولا : اللحن أم الشعر ؟

— لا أدرى . كنت أقيد الجزء من اللحن فأجد أبياته ترد على لسانى فأكتبها وكنت أكتب البيت والبيتين فأجد لحنهما حاضرا فأجسده .

— إذن كنت تفكر فيهما على السواء .

وما لبث مراد أن جلس إلى البيانة وهو يقول لفؤاد « غن معى » وطفق يوقع اللحن وانبرى فؤاد يغنى :

مَدَّ كفيه إليَّا   فهفَا قلبى إليهِ
ضَاحِكٌ طَلْقُ المُحيَّا   رفرفَتْ رُوحى عليهِ !
ذكَّرتْنى مُقْلتاهُ   مُقْلتَىْ خِلٍّ عرفتُهْ
وحَكَتْ لى شفتاهُ   كَلِمًا منه أَلِفْتُهْ
عرفَتْ رُوحِى مَنْ هو
ليتَ شِعْرِى أتُراهُ كان يَدْرى مَنْ أنا ؟
كان هذا الطفلُ سِرًّا   لِىَ يا قَلْبُ لدَيْكَا
فعساهُ حين مَرَّا   بِىَ قد حَنَّ إليكا !
***
رَاحَتِى باحتْ بِحُبِّى   حين لامستُ يَمينَهْ
وَفَمِى سَالَ بقلبى   حين قبَّلتُ جبينَهْ
عرفتْ رُوحِى مَنْ هُو
ليتَ شِعْرى أتُراه كان يدرِى مَنْ أنا ؟

ظلَّ يدعُونِىَ : بَابَا ! جاهِـدًا يلْثـغُ نطْقَـا
ليتَـهُ قـال صوابـا ! ليتَه ينطِقُ صِدْقَـا !
أمْ تُراهـا أخبرتْـهُ بالـذى كـانَ أبـاهُ
ثُـمَّ لمَّـا هجرتْـهُ نجَلَتْـه مِـن سِواهُ !
عرفتْ رُوحِىَ مَنْ هُو
ليت شِعْرى أتُراه كان يدرِى مَنْ أنـا ؟
أيها الطفـلُ إذا مـا كبرتْ يومًـا يـداكَ
فاسْعَ فى خِدمةِ مامَـا وانْسَ فى الدّهرِ أباكَ
★★★
لا تذكّرْها بعهـدِى فقديمـا تركتْـهُ
جعلَتْ مهدك لَحْدِى ولِغَيْـرى حرّكتْـهُ
عرفتْ من أنت رُوحى
لستُ أدرى ليت شعرى كنتَ تدرى مَنْ أنا ؟
بـارك اللهُ عليكـا أيُّها الطفـلُ الصغيـرُ
ولْتَعِشْ فـى شفَتيكا بسمـاتٌ وحبـورُ
★★★
لاشكوْتَ الدهرَ حيفًا حسبِىَ الآلامُ حُفْلا
قد رأيتُ اليومَ كيفـا كُنتُ لمَّا كنتُ طِفْلا
عرفتْ منْ أنتَ رُوحى
لستُ أدرى ليتَ شِعرى كنت تدرى من أنا ؟

٢٧

استمر فؤاد بعد ذلك يضع الألحان وينظم أشعارها ، وقد أورثته هذه القدرة الطارئة على قول الشعر نشوة عجيبة سلته كثيرا عن همومه وآلامه ودفعته إلى الإنتاج المتواصل فصار يلتهب نشاطا وهمة .

ورأى مراد السعيد أن يفيد من هذا النشاط العجيب الذى طرأ على فؤاد فجعل يغريه بأن يقوم بعمل كبير يتوج به فنه ويبلغ به أوج كماله وذلك بأن ينشط فيضع أوبرا شعرية ويلحنها تلحينا رائعا يوائم معانيها ويساوق مواقفها المختلفة . ومن أولى بهذا العمل من فؤاد الذى اجتمع فى برده الشاعر والملحن معا ؟

وظل بضعة أسابيع يشرح له فن الأوبرا ويكشف له أسراره وخفاياه ويقرأ له بعض الأوبرات العالمية الشهيرة ويعزف له مشاهد منها حتى تشبع فؤاد بفكرتها وعزم على التأليف فساعده مراد فى اختيار الموضوع وتصميم الرواية .

وقد اتفقا — بعد أن استعرضا موضوعات شتى لم تستجب لها نفس فؤاد — على أن يكون موضوع الأوبرا قصة الشاعر والموسيقار ، مستمدة حوادثها مما وقع لفؤاد نفسه مع صاحب الخرابة بشىء من التحوير والتركيز ، وأن يكون المحور الذى تدور عليه فكرتها هو انتقام الفن من الفنان إذا أضاعه وفرط فى حقه .

وكان فؤاد قد انقطع من عهد بعيد عن التردد إلى الخرابة منذ انقطع صوت الشاعر عنه واستطاع أن ينظم أغانيه بنفسه ، وحال بينه وبين

ذلك ضيق وقته لما يقوم به من العمل الدائب فكان يكتفي بالوقوف قليلا أمام الخرابة إذ مر بها في طريقه ذاهبا من بيته أو عائدا إليه فيقرأ الفاتحة لروح صاحبها ويترحم عليه .

ولكن مشروع الرواية أعاده ثانية إلى الاهتمام بصديقه الشاعر والتفكير فيه ، فرغب فى زيارة الخرابة لاستنطاق رسمها الدائر واستلهام صاحبها الشاعر ، فجعل يختلف إليها نهارا . ثم عن له ذات ليلة فزارها ليلا وشعر حين دنا منها بشيء من الوحشة والخوف على غير مألوف عادته ليالى كان يتردد عليها لسماع صوت الشاعر . فعجب لذلك وحدثته نفسه بالرجوع : بيد أنه أقنعها بالمضى وعلل ذاك الشعور بانقطاعه عن طروقها برهة طويلة .

ولكنه لم يكد يقبل عليها حتى سمع أنينا لا ينقطع إلا بما يتخلله من صوت كالزفرة العميقة والنفس المبهور . فارتجف قلبه وطارت نفسه شعاعا وذهبت به الظنون كل مذهب . وأراد النكوص فحال دونه خاطر تسلط عليه عسى أن يكون هذا الأنين الموجع أنين صديقه الشاعر يعانى عذابا واصبا فى قبره وعسى أن يستطيع هو معونته والتخفيف عنه ، فمضى قدما حتى دخل الخرابة فإذا عينان حمراوان كأنهما جمرتان ، وشعور منكوشة متطايرة كأنها دخان أسود ، وفم لاهف ينفتح وينطبق كأنه فوهة بركان ثائر ! وإذا هن لامرأة بيضاء جميلة التكوين ، لا يدرى أكاسية هى أم عارية ، لو تجسد الحزن واللوعة والحيرة فى تمثال لكانت هى التمثال !

فوقف مبهوتا لا يدرى ما يصنع إلى أن رآها تقبل إليه كوحش كاسر يريد الانقضاض عليه . فولى مديرا كالصيد النافر وصدى صوتها يرن

فى أذنيه . « هو أنت ! هو أنت ! » ولم يشعر بنفسه إلا أمام قصره ، فكره أن ترى والدته ما هو عليه من الحال ، فواصل سيره إلى بيت مراد السعيد .

وحار فؤاد فى فهم هذا الحادث الجديد الذى رآه . وتذكر أن الشاعر قد نهاه عن زيارته ليلا فلعله خشى عليه من مثل هذا ، وجاراه مراد السعيد فى حيرته هذه وفى تفسيره أيضا جريا على الخطة التى آثر اتباعها معه من قبل . وبقى فؤاد عنده يتجاذبان أطراف الحديث فى الشئون التى تهمهما حتى اطمأن باله وهدأ جأشه فانصرف إلى بيته .

وقد دأب مراد على مجاراة فؤاد فى كل ما يرى من هذه الظواهر العجيبة ولكنه كان يعمد إلى هذه الظواهر إذا خلا إلى نفسه فيجتهد أن يفسرها تفسيرا علميا . وكان يجد لذة كبيرة فى ذلك ، وقد دون بحوثه هذه ليؤلف من موادها كتابا خاصا يرى هو أنه سيلقى ضوءا كبيرا على كثير من المسائل النفسية المعقدة .

خذ مثلا قدرة فؤاد على قول الشعر فى آخر الأمر ، فهى عنده برهان جديد على صحة شاعرية فؤاد وأن الصوت الذى كان يسمعه إنما هو صوت عقله الباطن . وقد كان اعتقاد فؤاد أنه لا يقول الشعر يحول بينه وبين قوله فى يقظة الوعى . فلما أن أكثر فى غير الحالة الواعية قوله للشعر ، ومرنت نفسه على ذلك ، وصور له الوهم أن صاحبه الشاعر قد استراح من عواطفه المحتبسة فى صدره فلن يقول له بعدئذ شيئا ، ألقى فى روعه أنه قد يستطيع الآن قول الشعر مستجيبا فى ذلك إلى أمنيته من قبل ، ولكنه لم يطمئن إلى هذا حتى ظهر له الشاعر فى الحلم فأخبره بمصداق ما ألقى فى روعه ، وما هذه الرؤيا إلا صورة لما حدث

به نفسه مثل سابقتها ومثل ما سمعه من الشاعر ليلة عزم على الانتحار حتى ظهر له شبحه فى الخرابة .

وقد يقف أحيانا دون بعض المشكلات حائرا فيسجلها كما هى ويعيد النظر فيها حينا بعد حين لعله يجد لها حلا علميا . ومن هذه المشكلات صورة المرأة المحلولة الشعر التى رآها فؤاد فى الخرابة ، فتارة يفسرها بأنها صورة إحسان الراقصة التى شهدها فؤاد ساعة الاحتضار قد أثرت فى نفسه تأثيرا عميقا ، ولعله شعر حينئذ أنه لا يخلو من التبعة فيما أصابها من المصير فظهرت له فى تلك الصورة كأنها تريد أن تنتقم منه ، وتارة يفسرها بأن فؤادا قد كان تخيل صورة لحبيبة الشاعر الذى أطلق هو أغانيه فى زعمه فتوهم أن هذه الأغانى المنطلقة قد أزعجت روح تلك المرأة بعد استقرارها وهدوئها ، ولما كان هو السبب فى إطلاقها فهى حاقدة عليه تريد أن تنتقم منه . ولعل مما أوحى إليه هذه الفكرة ما قدر فى نفسه أو توقع أن يكون من تألم إحسان وعذابها المستمر كلما سمعت أغانيه وألحانه بعد ما انتهى إليه نبأ سقوطها من أريكتها مغشيا عليها ليلة العرس .

ثم ما لبث مراد أن جزم بهذا التفسير الثانى حين جاءه فؤاد بعد ذلك بأيام وهو فرح مستبشر ، فقال له : « لقد خطرت لى فكرة رائعة فى الرواية » .

— ما هى يا فؤاد ؟

— أرأيت إلى المرأة التى رأيتها فى الخرابة ، فإنى ما أحسبها إلا حبيبة الشاعر كانت آمنة فى قبرها حتى أزعجتها قصائده التى أطلقتها ألحانى ، فهى هائمة مكانه كالشريد ، على حين استراح هو من عذابه

الطويل فنام آمنا فى قبره .

— رأى وجيه يا فؤاد .

— فلنضف محورا ثانيا لفكرة الرواية .

— هو انتقام الفن للفنان من حبيبته إذا هجرته وآثرت غيره عليه !

فصاح فؤاد قائلا : « مرحى ! هذه هى الفكرة التى خطرت لى ... ألا توافقنى عليها يا أستاذ ؟

— بلى يا فؤاد إنها فكرة رائعة حقا .

٢٨

قضى فؤاد بعد ذلك زهاء ستة شهور فى تأليف الرواية ثم تلحينها ، وكان خلالها يشتغل ليلا ونهارا بهمة لا يعتورها الكلال ، حتى أشفق عليه مراد السعيد نفسه من ذلك الجهد المضنى ، وخشى أن يصيبه من جرائه سوء فى صحته . فكان كثيرا ما ينصحه بالقصد فى عمله وتنظيم أوقاته بحيث يكون للعمل منها نصيب وللراحة نصيب . ولكن فؤادا كان لا يصغى أو لا يستطيع أن يصغى إلى نصيحته ولا إلى نصائح أمه وخاله فى هذا المعنى . فكان ربما سهر الليل كله إذا دعاه إلى ذلك اطراد العمل عنده حتى يرتعش القلم فى يمينه ، ويحول الإعياء بينه وبين الاستمرار .

وكان على هذا العمل الدائب قليل الطعام ، يكثر من التدخين وشرب القهوة والشاى ، حتى إذا اعتل ونصحه الطبيب بالكف عن الإجهاد والامتناع من هذه الكيوف ، أطاعه على كره إلى أن يجد شيئا

من النشاط فلا يلبث أن يعود إلى ديدنه قبل أن يبل حقا من مرضه . وكان أخوف ما يخاف الطبيب عليه أن يصاب بصدره لما يرى عليه من دلائل الضعف .

ولئن ألهاه العمل قليلا عن همومه وآلامه فيما ترى العين ، فليس الأمر في الحقيقة كذلك ، فإن الجرح كان غائرا في قلبه ، لا يندمل — إن اندمل أحيانا — إلا على فساد ، قد تنكؤه ذكرى من ذكريات إحسان ، أو نبأ جديد عنها ، فإذا هو غريض يقطر دما ، وكان إذا ألمت به نوبة من هذه النوبات يلوذ بأمه فينتحب في حجرها انتحاب الطفل .

وعز على أمه أن يستمر بابنها هذا الحال التعبس حتى بعد أن أصاب من النجاح المادي والأدبي ما لم تكن تطمع فيه ، وأن لا يذهب كرور الأيام شيئا من وجده وتباريحه ، كما عز ذلك على خاله أيضا . فتشاورا في أمره واتفقا على أن يكلماه في الزواج من فتاة أخرى لعلها تسليه عن إحسان وتنسيه ذكراها . ولكن أذنه كانت صماء في هذا الصدد . ورأى خاله أن يستعين بمراد السعيد في هذا السبيل فهو أجدر الناس أن يتبع فؤاد مشورته . ولكن مرادا كان يرى التريث في هذا الأمر إذا أريد منه أن ينجح في مهمته ، معتقدا أن هذه المحنة ستنقضي يوما من الأيام فيخف تعلقه بإحسان شيئا فشيئا حتى يسلوها من ذات نفسه ، وهو يخشى ألا ينجم عن الإلحاح عليه بالزواج اليوم إلا نقيض ما يراد به . وقال للشيخ عبد الله البرقاوي فيما قال له : « إن حمادى ما أصنع لفؤاد اليوم هو أن أصرفه عن إجهاد نفسه في العمل وأميل به إلى الاعتدال فيه بما أصطنعه معه من مختلف الوسائل والحيل فهذا خير

وأجدى من مكالمته فى أمر الزواج .

ولكن الشيخ عبد الله البرقاوى وأخته لم يقتنعا بهذا الرأى فجعلا يحثان فؤادا على الزواج وجعلت أمه تقول : « إن العرائس غيرها كثير فما تعلقك بتلك التى انتقم الله منها فجعلها زوجة لفاسق مجرم هو الآن فى ظلمات السجن ؟ وأنت اليوم قد أصبحت غنيا مشهورا تستطيع أن تتخير من شئت من بنات الأسر الكبيرة » .

وكان فؤاد يعتذر فى أول الأمر بأسباب شتى ، فلما كثر الإلحاح عليه ضاق صدره فصار يسمع ولا يجيب . وقد تحقق ما توقعه مراد إذ أصابت فؤادا نكسة قوية حين استشعر ألم اليأس من جديد فما لبث أن أصيب بالتهاب رئوى حاد ألزمه الفراش قرابة شهرين وكاد يقضى عليه لولا لطف الله .

وفى أثناء هذه المدة تذكر فؤاد (لحن الوداع) فإذا تلك الأبيات التى كانت آخر ما سمع من صديقه الشاعر ونسيها قد عادت فجأة إلى ذاكرته فأملاها على الأستاذ مراد الذى كان يعوده حينذاك .

وأبل فؤاد من مرضه ولكنه أصبح يذكر الموت كثيرا ويشعر بأن نهايته وشيكة أن تحين . وطالما اجتهد مراد السعيد أن ينفى عن ذهنه هذه الفكرة فلم يفلح . وكان من آثارها أن فكر فى شراء خرابة الشاعر ليدفن فيها عند موته ، وتقصى عنها فوجدها قد آلت إلى الأموال العامة فهى تابعة لوزارة الأوقاف ، وقد نجح فى ابتياعها منها بعد سعى طويل .

وكان من أول ما فكر فيه عقب قيامه من مرضه أن يذيع أغنية الوداع فغناها وسجلها فى محطة الإذاعة . وسمعها الناس ، فعجبوا لهذه

النغمة الجديدة الصارخة فى أغانيه . وكانوا قد سمعوا بمرضه ثم شفائه ، ورجوا أن يعود فيستأنف حفلاته الشهرية العامة ، وهم يترقبون كذلك أن ينتهى وشيكا من إعداد مسرحيته الغنائية الكبرى ، وينتظرون يوم عرضها بفارغ الصبر .

ونصح فؤاد أطباؤه بأن يلتزم الراحة برهة كافية يستجم فيها وينقطع ألبتة عن العمل حتى تشتد منته ويؤمن عليه من انتكاس العلة ، وحذروه عاقبة عصيان أمرهم ، فما زاده ذلك إلا شعورا بقرب النهاية ودنو المورد فعليه أن يبادر إنجاز عمله العظيم قبل الفوات .

واختار فؤاد مغنيتين شهيرتين لتمثيل دورى حبيبة الشاعر وحبيبة الموسيقار ، وأحد المطربين لدور الشاعر على أن يقوم هو بدور الموسيقار .

وانقضت ثلاثة شهور أخرى فى حفظ الأدوار والتدريب على تمثيلها وغنائها ، واختيار الأشخاص للقيام بالأدوار الثانوية فى الرواية وإعداد مناظرها ، وما إلى ذلك . وقد اختير لإخراجها مخرج كبير يعاونه بالتوجيه فى ذلك الأستاذ مراد السعيد .

وانتهى العمل وعينت ليلة الحفلة واتفق مع المحطة بأجر كبير على إذاعتها من دار الأوبرا الملكية وتسجيلها على أن لا يذاع التسجيل إلا بعد أن تنقضى أيام عرضها .

وكانت الحفلة للأولى أروع ليلة شهدها الفن الرفيع فى مصر . رأى الناس فيها كيف اجتمع الموضوع القوى والشعر الرائع والتلحين العبقرى والتمثيل الصادق فى ساحة واحدة لأول مرة فى تاريخ الفن بالشرق كله .

وكانت قاعدة الدار وشرفاتها تزدحم بالمتفرجين حتى اضطر بعضهم إلى الوقوف فى أركانها وممراتها ، وما كان يتسنى الحصول على التذاكر إلا بطلبها واستحجازها قبل الحفلة بأيام ، واستمر عرضها عدة ليال وما يزداد الناس إلا إقبالا عليها حتى شهدها بعضهم مرتين أو ثلاثا . وما منعها أن يستمر عرضها إلى أجل ما بعد ذلك إلا حادث جلل .

٢٩

كانت هذه الحوادث تجرى وإحسان على حالها من اللوعة والألم . تحاول الاعتصام بحبل الصبر والتجلد حياء أن تراها العيون مشغوفة بعد بحبيبها الموسيقى الشهير ومشغولة بأمره ، وهى مقيمة فى قصر عاكف باشا الكبير ، وفى عصمة ابنه السجين ، وفى حجرها حفيده الرضيع .

وقد جاهدت نفسها جهادا كبيرا لتقضى على ذلك الوجيب الذى يعترى قلبها وتلك الشجون التى تعتلج فى صدرها كلما سمعت صوت فؤاد فى المذياع أو صوت غيره يترنم بإحدى أغانيه التى انتشرت فى كل مكان ، وأصبح يهزج بها الكبير والصغير . ولكن هذا الجهاد العنيف لم يلبث أن قضى على أعصابها . وخانها الكتمان فباح بسرها لمن حولها . وكانت لا تستحيى من أحد ما تستحيى من عاكف باشا الذى يعزها ويكرمها ويحنو عليها حنوا كبيرا . فلما أدركت أنه قد ألم بحالها جن جنونها وشعرت بخجل شديد وظلت أياما تتوارى عن وجهه وتتهرب من مجلسه ، وما زادها عطفه الشديد ومحاولته التسرية

عنها والتهوين عليها إلا نكأ في جرحها .

عطل المذياع فى قصره ونحاه بعيدا عن مكانه ولكن مذاييع الجيران ما تنفك ترسل صداها إلى القصر ولا سبيل إلى تعطيلها . فمن منهم يرضى أن يعطل مذياعه من أجل غيره إذا طلب منه ذلك إلى أجل غير مسمى ، وهبهم يرضون إذا سئل منهم ذلك فبأى لسان يكلمهم وأى عذر أو أى سبب يبسطه لهم ويقدمه إليهم ؟ إنها والله لمشكلة .

وسرت إحسان بتعطيل المذياع فى القصر وتنفست الصعداء ، فقد كانت تكرهه أشد الكره وتود التخلص منه بأى سبيل . وهدأت نفسها قليلا وظهر عليها شيء من الراحة والطمأنينة آنسه عاكف باشا فحمد فعله وأمل فى المزيد . غير أنها لم يمض عليها إلا زمن قصير حتى افتقدت المذياع وحنت إليه . فبعد أن كانت كثيرا ما توصد عليها شبابيك غرفتها لئلا يتسرب إلى سمعها صداه من بيوت الجيران ، صارت لا تختلى فى غرفتها إلا لتسمعه حيث لا يراها أحد لعلها أن تسمع أغنية من أغانى فؤاد .

واتفق ذات ليلة أن سمعت من مخدعها أغنية (الطفل) أو أغنية (الحلم الضائع) كما يسميها فؤاد . وكانت الخادمة قد حدثتها بما كان من أمر الشاب الوجيه وملاطفته لابنها شوقى على رصيف النيل ، فما كادت تسمع الأغنية الجديدة حتى أدركت أن ذات الشاب الوجيه إنما هو فؤاد وأن الأغنية وضعت تصف ذلك الموقف فجعلت تصغى إليها وهى تبكى وتنتحب .

وسمعت هدة فى غرفتها فدخلوا عليها فوجدوها ملقاة على الأرض فاقدة الوعى فحملوها إلى فراشها وأسعفوها فأفاقت . ولكنها لم تبرح

الفراش إلا بعد عشرين يوما دعى فيها الأطباء لعلاجها ، فاتفقوا جميعا على أنها مريضة بأعصابها ووصفوا لها مختلف الأدوية ولكنهم أجمعوا على أن دواءها الحقيقى فى الراحة التامة والهدوء واستحسنوا أن تنقل إلى الريف .

وكان أهل إحسان يترددون عليها فى مرضها . والتمسوا من عاكف باشا أن يأذن لهم فينقلوها إلى بيتهم ليتولوا تمريضها فيه ، فرفض طلبهم وألحوا عليه فأصر على الرفض وانتقل بأهله إلى عزبة له فى ضواحى القاهرة وحملت إحسان إليها وتبعتها أمها لتكون بجانبها .

وقد كان لهواء الريف أثره الجميل فى إحسان ، فتقدمت صحتها قليلا وصارت تتنزه فى الحقول ومعها خادمتها تحمل وليدها . وخيل إلى من حولها أنها قد أوشكت أن تسلو همها ، وتشفى من دائها ، حتى سمعت ذات يوم أحد أبناء الفلاحين يترنم بشىء من أغانى فؤاد ، فعاودتها شجونها . وبلغ ذلك عاكف باشا فجمع من عنده من الفلاحين وأبنائهم وبناتهم ، فحظر عليهم أن يرتفع لأحدهم صوت بالغناء ألبتة ما أقاموا فى العزبة ، وشدد عليهم فى ذلك فأطاعوه وهم يستغربون أمره ، ولا يفهمون له من علة أو غرض .

بيد أن إحسان ما لبثت أن تذكرت أغنية (الطفل) وانتفضت معانيها حية فى قلبها من جديد ، فجعلت كلما رأت ابنها اهتاجت شجونها . وكانت إذا خرجت تتنزه فى الحقول تستعيد الخادمة قصة الشاب الوجيه الذى حمل شوقى فى ذراعه وتسألها فى أى موضع من جسمه قبله ، فإذا أخبرتها الخادمة بما كان جذبت الطفل من يدها بحركة عصبية واندفعت تقبله فى المواضع التى قبله الشاب فيها بقوة



وتلك الشجون التى تختلج فى صدرها كلما سمعت

صوت فؤاد فى المذياع

وحرارة ، حتى أن الخادمة لتشفق على الطفل من قبلها العارمة ، وحتى أنه ليفرق أحيانا فيصيح باكيا .

وقضوا شهرين ونيفا فى الريف ولم يتحسن حال إحسان تحسنا يذكر ، وضاقت نفسها بالريف آخر الأمر وبرمت به ، فما كان من الأسرة إلا أن عادت إلى المدينة . وسألت إحسان أول ما ضمها القصر عن المذياع ، وطلبت أن يعاد إلى مكانه ، فلما راجعها فى ذلك عاكف باشا ، وقال لها : « لا خير لك فى المذياع فإنه يهيج أعصابك ويزيد مرضك » قالت له بلهجة صريحة : « بل تريدون أن تحولوا بينى وبين سماع صوت حبيبى ، إما أن تعيدوه وإما أن أهرب من هذا القصر » . فما وسعه إلا أن أمر باعادة المذياع إلى مكانه فجلست إحسان طول يومها أمامه تديره من محطة إلى محطة لعلها تسمع صوت حبيبها .

ولما بلغ هذا الخبر خالها استشاط غضبا وقال لاخته . « والله ما أفسدها إلا الباشا بحنانه الزائد وتدليله . والله لأربينها » .

— ماذا تريد أن تصنع بها يا محمود ؟

— سترين ما أصنع بها حين أحملها إلى هنا .

— ولكن عاكف باشا لن يرضى بذلك .

— لا أبالى رضى الآن أو لم يرض ، فسيرضى عنى غدا حين أعيدها وقد أخرجت هذا الشيطان من رأسها .

فلما كان المساء انتهز خروج الباشا من قصره فانطلق إلى القصر فوجد إحسان جالسة كحالها أمام المذياع فما أمهلها أن حملها بين ذراعيه وهى تصيح فلم يكترث لصياحها حتى رجع بها إلى بيته فجعل يضربها ضربا شديدا ، وهى تصيح وتعول وهو ينهرها ويقول لها :

« لقد فضحتنا أمام الناس يا ملعونة » وما كف عن ضربها إلا حين ألقت سميرة بنفسها بينهما . فجرها من يدها إلى غرفة ضيقة فزجها فيها وأغلق عليها الباب ومنع أخته وزوجته من الدنو منه .

وجاء عاكف باشا فى صباح اليوم التالى فهاله ما رأى وأقبل على محمود ضياء الدين يوبخه ويعنفه ويقول له : « إنك لا تشفيها بهذا بل تفضى بها إلى الجنون » وفتح الباب فوجدها مقرحة الجفون من الدمع فأقبل عليها يواسيها وأمرها أن تغسل وجهها لتعود معه إلى القصر .

ولما رأت ابنها فى القصر خفت إليه فطفقت توسعه ضما وتقبيلا وهى تدعوه : « فؤاد يا حبيبى فؤاد ! » ثم رجعت إلى ديدنها فى المرابطة أمام المذياع لا تفارقه إلا حين يؤخذ بيدها لتأكل أو تنام .

وكان عاكف باشا يتحمل هذا العناء بصدر رحب ، وقد كان عسيا أن يرضى برجوع إحسان إلى بيت أهلها بعد فطام حفيده العزيز عليه وإمكان استقلاله عنها ، لولا ما رأى من قسوة خالها وطيشه ، فأشفق عليها من ذلك وعزم على إبقائها عنده مهما لقى فى ذلك من المتاعب .

ومما زاده تعلقا بها وشفقة عليها أنها أصبحت تأنس إليه ولا تستحييه بل لا تتحرج أن تكاشفه بما فى صدرها كأنه ليس والد زوجها بل هو صديق لها حميم .

قالت له ذات يوم فى ساعة من ساعات صفائها : « يا عمى متى يخرج صبرى من السجن ؟ » .

قال لها : « بعد سنة وبضعة أشهر » .

— أتعيدنى إليه حين يخرج من سجنه ؟

— إن استقام وشئت أنت .

— لا يا عمى لا أريد أن أرجع إليه .

— إذن فلا يهمنك أمره . لقد تبرأت منه فما أعتبره ابنى وإنما ابنى هو ابنك شوقى بارك الله لنا فيه .

— ولكنى لا أزال فى عصمته وأخشى ..

— كلا لا تخشى شيئا . سأدعه حينئذ يطلقك .

— أتقدر على هذا ؟

— نعم .

— لم لا تحمله على طلاقى الآن ؟

— وماذا يعجلك يا ابنتى ؟ إنه بعد فى السجن ولا خوف عليك منه .

— بل أخاف يا عمى . وهذا الخاطر يزعجنى ويؤرقنى .

فوعدها عاكف باشا خيرا وجاءها من الغد بوثيقة الطلاق فبكت من فرط الفرح وقبلت رأسه تشكره وتدعو له .

قال لها : « افرحى وامرحى الآن يا إحسان ودعى عنك هذا الهم الذى يقلق راحتك ويضر بصحتك ، واعلمى أنك دائما ابنتى العزيزة وأنى دائما والدك الشفوق » .

وظلت إحسان أياما طيبة النفس مستبشرة فكأنما عادت إلى رزانتها الأولى قبل أن تصاب بهذا المرض ، فهى تسمع من المذياع ولكنها لا تلازمه ، وهى تعنى بشئون ابنها وتهتم بشئون البيت وتشترك فى خدمته وتقابل الضيوف من النساء فلا يتكرن من أمرها شيئا .

على أنها ما لبثت بعد ذلك بقليل أن اعتراها ضرب من الوجوم وميل إلى الوحدة ، فإذا فاجأها أحد فى خلوتها وجدها كمن تتحدث إلى

نفسها ، فحينا تعبس وحينا تبتسم ، فلم يشك من حولها أنها وشيكة أن يعتريها الجنون .

ولكن عاكف باشا لا يرى هذا الرأى فهو يعلم ما بها حق العلم ويكاد يلمس ما يجول فى خاطرها ، فحار فى أمرها ماذا يصنع ليسرى عنها ، وظل أياما يفكر ويقدر إلى أن استبان له وجه الرأى آخر الأمر فخلا بها يوما ، وبعد أن أراها ضروب العطف والحنان قال لها : « يعز على يا إحسان أن تبقى هكذا مهمومة واجمة أفلا تخبريننى بما يشغل قلبك من الهم لعلى أستطيع أن أصنع شيئا من أجلك » .

وما زال بها يتلطف معها فى الحديث حتى قالت له والخجل باد فى وجهها .

« أتراه يا عمى ما يزال يحبنى ؟ »

— تعنين فؤاد حلمى ؟

فأومأت برأسها أن نعم .

— لاشك يا بنتى أنه ما يزال يحبك ولعل الله يأذن يوما فتتزوجينه .

— أيمكن هذا أن يكون بعد الذى كان ؟

— لم لا ؟ غدا يكبر ابنك شوقى قليلا فإذا تقدم فؤاد يخطبك فإنى أنا الذى سأتولى تزويجك له . فما عليك الآن إلا أن تزيحى هذه الهموم عن صدرك إبقاء على صحتك حتى ذلك اليوم .

— وما يدريه أنى خلية وأن خالى لا يرفض طلبه ؟

— كلى هذا الأمر لى فسأدبره لك أحسن تدبير .

— ألست حاقدا يا عمى على فؤاد ؟

— أستغفر الله — علام أحقد عليه ؟ إنى والله لأعطف عليه كما

أعطف عليك ، ولو كنت أعلم أنى سأكون سببا فى التفريق بينك وبينه لما خطبتك لابنى العاق . ولكن هذه إرادة الله يا إحسان وقد رزقنا الله منك بشوقى فإن سلم لى هذا الولد فلا أبالى بشىء فى الدنيا .

فتنهدت إحسان وقالت وفى وجهها آثار البكاء : « ما أطيب قلبك ياباشا ! » .

— لا تنسى أنى من المعجبين بفنه العظيم فأنا أحبه كما تحبينه وسأحضر إن شاء الله مسرحيته الغنائية التى ينوى عرضها قريبا فقد ذكرت الصحف أنها ستكون آية فنية رائعة .

— أحقا تنوى حضورها ؟

— نعم فإن شئت حضرتها معى .. لكن ..

— كلا يا عمى ... لا أستطيع حضورها .

— إذن نسمعها معا من المذياع هنا فلابد أنها ستذاع .

اطمأنت بعد ذلك إحسان فمشت نحو الشفاء بخطا واسعة وما لبثت أن أشرق وجهها وتورد خداها ودب النشاط فى جسمها وصارت تعنى بما أهملت من زينتها وتتودد إلى مرآتها بعد هجر طويـل . وشعرت كأنما عادت إلى البتولة كرة أخرى ، أو كأن ما كان من زواجها لم يكن إلا رؤيا فى المنام انتبهت فلم تجد شيئا ، فهاك خفة العذراء وهاك دلالها ، وهاك أحلام العذراء وهاك آمالها !

ورنت أغنية (الوداع) فى المذياع ذات مساء فتساءت وقضت ليلتها فى قلق تضرب أخماسا لأسداس . ولكنها قرأت فى الصباح ما تكتب الصحف عن انتهاء المطرب الكبير فؤاد حلمى من إعـداد مسرحيته الغنائية وأنها ستعرض من الأسبوع التالى فى (دار الأوبرا الملكية) فتنفست الصعداء وخفق قلبها بالأمل . وإنها لكذلك إذا

بصوت المذيع يقول : « ستسمعون سيداتي وسادتي في الدقائق الآتية تسجيلا كهربائيا لأغنية « نجوى النيل » للمطرب الكبير الأستاذ فؤاد حلمي » فهفا قلبها وأراحت جسمها على الشيزلون وأسلمت نفسها إلى نشوة حالمة يخالطها الشجو والشجن وطفقت الأغنية تتسلسل في سمعها فتصغي لها كل جارحة فيها :

أيُّها النِّيلُ كم شهدْتَ سروري ... فاشهد اليوم لوعتي وأنيني !
وارثِ لي في توجُّعِي ... وابكِ بيض المُنَى معي

نَفَدَ اليوم مدمعي
فتفجَّرْ مدامعا من عيوني !

كنتَ تَرعَى مَهدِي وليدًا وتنها ... لُ على وجنتَيَّ بالقُبُلاتِ
تمسحُ الدمع إن بكيتُ وتغري ... بفمي زمرةً من البسماتِ
وتوليتني صبياً على شطِّـ ... ـك أَلْهُو مع الصغارِ لِداتِي
نتبارى على صعيدك وَثْبا ... كفراشٍ في الروضِ منطلقات
حيثُ نعدو ونركضُ ... حيث نكبُو فننهضُ
وحنايَاكَ ... تنبضُ

أيها النِّيل من حَنانٍ وليِنِ !

أيها النيل كم شهدت سروري ... الخ

تشتهي أن تضمَّنا بين حضنَيكَ ... ونخشَى موجاتِك المغرقاتِ
كم دعانا لذاكَ أنك سَمْحٌ ... فنهانا عن ذاك أنك عاتِ !
وإذا أَدْبَرَ النهارُ تركنا ... كَ لِنَلْقَى الآباءَ والأمهاتِ
فإذا ما نِمْنا أَتيتَ فداعبْـ ... ـتَ بلُطْفٍ عيوننا الحالماتِ
فإذا نحنُ نستَبِحُ ... فيك نلهو ونمرحُ

والمنامـــاتُ تمنســـــخُ
ما بـه الانتبـاهُ جِـدُّ ضنيـــنِ

أيها النيل كم شهدت سروری .:. الخ

وتعهَّدْتنـي وقـد بَقَـلَ الشا ربُّ منی واستيقظتْ صبوَاتـی
وتـولَّتْ عينـای تعـريضَ قلبی لِسهـامِ اللواحـظ القاتـلاتِ
كُنتَ يا نِيلُ مسرحًا لغرامی وشهيـدًا بينـی وبيـن فتاتِـی
نتناجـي وأنـت تصغـی إلينـا ونـقص الآمـال والذِّكْرَيـاتِ
أينَ يـا نِيلُ أين أيـنْ أمسيـاتٌ لنـا اجتلَيْـن
منكَ شطَّين ساحِرَيْنْ ؟
بدَّدتْها يـدُ الزمـان الخـؤونِ !

أيها النيلُ كم شهِدت سروری فاشهد اليوم لوعتـی وأنينـی !
وارثِ لی فـی توجُّعـی وابكِ بِيض المنى معـی
نَفِد اليوم مدمعی
نتفجَّرْ مدامعًا من عيونـی !

٣٠

كان عاكف باشا وإحسان جالسين إلى المذياع يستمعان إلـى المسرحية الغنائية الكبرى وهی تذاع من (دار الأوبرا الملكية) ليلة العرض الأولى . وكان المذيع من حين إلى حين يصف للمستمعين مناظر الرواية فی فصولها الثلاثة وحركات الممثلين ونحو ذلك مما يدور على المسرح . وأدركت إحسان أن ليلى حبيبة الموسيقار فی

الرواية إنما تمثل دورها هى ، فكان شعورها نحوها مزيجا من الغيرة والعطف ، وودت غير مرة لو انطلقت إلى دار الأوبرا فقالت لتلك الممثلة : « هذا دورى أنا فتنحى لى عنه » !

وشفها الحنين وهى تسمع الموسيقار يشكو إلى الشاعر مواجع قلبه فيشكو الشاعر إليه كذلك ويقص أحدهما على الآخر ما لقى من هجر حبيبته حتى أنها لتكاد تصيح قائلة : « كلا يا فؤاد ما فعلت هـذا بك ! » .

وشد ما قلقت وارتاعت حين شهدت بسمعها رفع الستار للفصل الثالث عن قبر جديد للموسيقار قد بنى بجانب قبر الشاعر القديم ، وعن (أسماء) حبيبة الشاعر قد قامت من قبرها بعد رقادها المطمئن الطويل فهامت على وجهها كالشريد حتى وقفت على قبر حبيبها شاكية باكية ، ثم جاءت ليلى لتزور قبر حبيبها فوجدتها هناك فتشاكتا آلامهما وما لبث القبران أن انشقا عن الشاعر والموسيقار ، فتستعطف كل منهما حبيبها فيقول لها حبيبها « ذوقى جزاء ما صنعت بى فى الحياة . ستظلين فى هذا العذاب إلى الأبد ! » .

وكان عاكف باشا طوال استماعه للرواية يسترق النظر إلى إحسان فيذوب قلبه شفقة عليها حين يرى وجهها يفيض بالألم والحسرة فيقول لها حينا بعد حين : « انظرى إلى براعة التمثيل . لقد جعلنا نظن أنه حقيقة واقعة » أو ما يشبه هذا القول يريد بذلك أن يسرى عنها وأن يلطف من أثر المشهد فى قلبها .

وباتت ليلتها تحلم بالخرابة وصاحبها الشاعر وحبيبته ، وتهب مرارا مذعورة من كابوس مزعج تتخيل فيه موت فؤاد وقبره الجديـد ،

فتمسح عينيها وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتقول لنفسها : إن فؤادا لم يمت وإن ما سمعته إنما هو رواية يمثلها فؤاد على المسرح . وما تزال كذلك حتى تطمئن فتعود إلى نومها .

وظلت أياما يساورها هذا الوهم فى موت فؤاد ويختلط عندها الخيال بالحقيقة وتلعب بقلبها الهواجس حتى عرضت على عمها عاكف باشا رغبتها فى شهود الرواية كأنما تريد أن يطمئن قلبها برؤية فؤاد يضطرب على المسرح أنه بعد حي يرزق .

فعمد عاكف باشا إلى التليفون واتصل بدار الأوبرا فما أمكنه أن يستحجز له بنوارا إلا لبعد غد ، فجعلت إحسان تنتظر بعد غد بفارغ الصبر . ولما جاء ذلك اليوم أخذت من الصباح تعد نفسها لشهود الحفلة وتهيىء فستانها وحذاءها وقبعتها وزينتها ، ثم جعلت تتشاغل بهنات من شئون البيت لتروح عن نفسها ألم الانتظار ، إلى أن حضر وقت الغداء فأعدت المائدة وجلست عليها مع عمها عاكف باشا . وإنهما ليأكلان وإن المذياع ليقص أخبار الظهر فلا يكترثان لها كثيرا ، ويمضيان فى شأنهما وحديثهما . قال لها وهو يباسطها : « كأنك يا إحسان ما شهدت تمثيلا قط . كيف يخطر فى وهمك أن من يمثل دور ميت فى رواية من الروايات يموت حقيقة أو يخشى عليه أن يموت ؟ » .

وإن هذه الكلمات لرطبة بعد فى لسان قائلها ، وفى مسامع إحسان ، إذ غير المذيع نغمته بعد تلاوة الأخبار الداخلية وقال بصوت حزين :

سيداتى .. سادتى يؤلمنا أشد الألم أن ننعى إليكم فى هذه الساعة

كوكب الفن الساطع فى مصر وفى الشرق العربى كله : الموسيقار المصرى الأستاذ فؤاد حلمى . قضى نحبه اليوم فى الساعة الحادية عشرة على أثر نوبة رئوية ما أمهلته ، بينما كان يستعد لمواصلة عمله الفنى العظيم الذى يعرض منذ أكثر من أسبوع فى دار الأوبرا الملكية . وسيشيع جثمانه فى الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم ، فيصلى عليه فى جامع قايتباى بمنيل الروضة ، ثم يدفن فى الخرابة التى تدعى (خرابة الشاعر) بالمنيل ، تنفيذا لوصية الفقيد . وقد اتصل بنا صديقه الحميم مراد السعيد وأبلغنا رجاء الراحل العظيم فى لحظاته الأخيرة ، أن تذيع « أغنية الوداع » التى سجلها حديثا ، وأذعناها مرتين من قبل ، كأنما شعر رحمه الله بدنو أجله ، فأنشأها ليودع بها الحياة .... سيداتى .. سادتى دونكم أغنية الوداع للمرحوم الأستاذ فؤاد حلمى .

٣١

غصت إحسان باللقمة فى حلقها لما سمعت نعى حبيبها فى المذياع وبهت عاكف باشا فبقى فاتحا فمه لا يدرى ماذا يقول وماذا يصنع . وظلا شاخصة أبصارهما ، لا يكادان يصدقان ما يسمعان من النبأ الهائل الفاجع . حتى إذا أوشك المذيع أن يتم كلمته خارت قوى إحسان فمالت عن كرسيها وخرت هدا على الأرض . وكاد مواكلها الشيخ يصنع صنيعها ، لولا أنه استنجد بقواه ، وتماسك قليلا ليسعفها ما استطاع ، فصاح بالخدم فحملوها إلى سريرها ، وما كاد يصدر أمره إليهم باستعجال الطبيب للحضور حتى أسلم نفسه فتمدد على سريره .

وأفاق على صوت الطبيب يقول له إنه لا بأس عليه . وسأله عن إحسان ، فقال له إن بها نوبة عصبية شديدة ، وأن من الخير أن تنقل إلى مستشفى الأمراض العقلية ، حيث يتوفر الهدوء والراحة اللازمان لعلاجها . فعارض في ذلك واستحسن أن تعالج في البيت حتى تدعو الضرورة إلى ما أشار به الطبيب .

بقيت إحسان أياما وهي تهذى باسم حبيبها ، وتصيح بكلمات غير مفهومة ، وتردد ذكر الخرابة ، والشاعر ، وليلى ، وأسما ، وتقول أحيانا : « ليلى .. من ليلى ؟ أنا ليلى ! تنحى يا هذه عن هذا الدور فهو دورى أنا . أنا حبيبة الموسيقار . الموسيقار فؤاد حلمى ، أنا حبيبته لا أنت ! » .

وكثيرا ما تهب من فراشها بقوة هائلة ، وتنطلق نحو الباب لتخرج فيمسكها من حولها ويعيدونها إلى فراشها وهى تصيح : « دعونى أذهب إلى حبيبى ! أريد أن أزور قبره الجديد . ويلكم ! أتخافون على أن أضل الطريق ؟ إننى أعرف خرابة الشاعر بالمنيل ... أعرفها من الصغر » .

ويلح الطبيب بحملها إلى المستشفى ، فيستمهله عاكف باشا بضعة أيام أخر ، وما يزداد حالها إلا سوءا ، فهى حينا تبكى ، وحينا تضحك ، وقد تقوم فترتدى أفخر ثيابها ، وتتزين ، وتتعطر ، كأنها ذاهبة لشهود الحفلة فى دار الأوبرا ، ثم ما تلبث أن تلقى ثيابها وحليها على الأرض وتلطم خدها ، وتشد شعرها ، وهى تندب موت فؤاد وتبكيه بكاء مرا .

وكان يوم ظهر فيه على إحسان الهدوء والسكينة ، فسر أهل الدار

واطمأنوا إلى حالها . وجاء الليل فناموا وادعين . وكانوا يغطون فى نومهم حين قامت من فراشها بعد ما انتصف الليل ، فسارت على أصابع قدميها إلى حيث لبست ثيابها ففتحت باب القصر وانسلت منه دون أن يشعر بها أحد .

واتخذت سبيلها أمما شطر المنيل يلفها الغلس بردائه الشفاف . وكان القمر لم يطلع بعد ولكن تباشير نوره قد بدأت تظهر فى الأفق . ولعل الديدبان كان غائبا أو غفلت عينه إذ ذاك وإلا لرآها تخفق فى قلب الشارع كأنها جنية هائمة فى هزعات الليل !

حتى أقبلت على خرابة الشاعر وكانوا قد سدوا بابها الذى يلى وجه الشارع ولكنهم تركوا الفجوة التى تلى النهر فدارت حول الخرابة تتلمس الدخول حتى رأت الفجوة فطرق سمعها أنين خافت لا ينقطع إلا بما يتخللة من صوت كالزفرة العميقة والنفس المبهور ، فلم تقف ولم تتردد بل اقتحمت الفجوة فإذا هى بامرأة جميلة بيضاء محلولة الشعر جاثية على القبر تنتحب . فلما أحست بمجيئها استوت قائمة وجعلت تنظر إليها بعينيها الذابلتين الشكراوين بالدمع .

— من أنت أيتها المخلوقة وماذا جاء بك الساعة فى هذا الطلل الموحش ؟ .

— بلى أنت ما وجودك هنا وما جثوك على هذا القبر !

— ما يعنيك من هذا ؟ إنه قبر حبيبى .

— كلا بل هو حبيبى أنا !

— حبيبك أنت ؟ يا ليت !

— ما قولك يا ليت ؟ هو حبيبى حقا . أتريدين يا هذه أن تأخذيه

منى ميتا كما أخذونى منه حيا ؟

— كأنى بك بائسة مثلى ! من هذا الذى تحبينه يا إنسانة ؟

— فؤادى ... فؤاد حلمى .

— هه ... تعنين هذا الموسيقى اللعين الذى هلك قريبا فدفنوه هنا ! يا ليته هلك من قبل !

— حرام عليك ! ماذا صنع بك فتلعنيه وتنالى منه ؟

— ماذا صنع بى ؟ أليس هو الذى أطلق قصائد حبيبى فما انفكت تلسعنى فى قبرى ؟

— ويلى ! أأنت حبيبة الشاعر صاحب هذه الخرابة ؟ أأنت أسماء ؟

— أجل أتعرفين اسمى ؟

— نعم وأعرف قصتك ، إنها كقصتى .

— ما اسمك يا أختاه ؟

— إحسان .

— أزوجك أهلك من غيره يا إحسان ؟

— نعم .. لا سامحهم الله !

— أفمات حبيبك شهيد حبك ؟

— نعم .

— مسكين ! هو إذن أجدر برثائى منه بلعنى .

— إى والله لقد عاش محبا شقيا وقضى نحبه كذلك محبا شقيا .

— بيد أنك لا تتعذبين يا إحسان كما أتعذب .

— بلى يا أسماء ، إن أغانى حبيبى لتقطع قلبى حنينا وحسرة وتطاردنى فى كل مكان .

— مسكينة ! نحن إذن فى العذاب سواء .. رباه ! متى ينتهى هذا العذاب الطويل ؟ متى أعود مطمئنة كما كنت فى قبرى وأستريح من هذا الهيمان فى أعقاب الليل ؟

وما لبثت أن ارتمت جاثية على القبر تمرغ به خديها وتبلله بدموعها وهى تقول : « قاسم حبيبى يا قاسم . ألا ترحمنى ؟ ألا ترثى لحالى ؟ شهد الله أنى ما هجرتك ولا سلوت حبك . وإنما أهلى هم الذين أكرهونى على الزواج من غيرك . فما ذنبى يا قاسم » ؟

ولم تملك إحسان أن ارتمت جاثية على القبر بجانبها فجعلت تصنع صنيعها . وإنهما لعلى هذا الحال فى النشيج والدعاء إذا صوت كأنه آت من داخل القبر ، فرفعتا رأسيهما وكفتا عن النشيج لتصغيا إليه .

— ارحمها يا قاسم .. اعف عنها يا صديقى فحسبها ما لقيت من العذاب !

وإذا صوت آخر يجيبه :

— دعها يا صديقى تتعذب بعد فإنها لم تذقه إلا بضعة أعوام وقد ذقته أنا مئات السنين !

— ولكنك قد استرحت من عذابك الطويل كأنه لم يكن . فبحقى عليك إلا ما أرحت هذه البائسة من عذابها أيضا . وبعد فإنها ما أساءت إليك فلا تؤاخذها بجريرة أهلها .

— أما تعلم يا فؤاد أنها كانت راضية مطمئنة طوال القرون التى تعذبت فيها ؟

— ما كان فى وسعها أن تصنع شيئا من أجلك . وقد كان ذلك عقوبة لك على ما أحرقت من ديوان شعرك . أنشدك الله يا قاسم أليس

لى من فضل عليك ؟

— بلى يا فؤاد إن فضلك على لعظيم .

— فاجزنى به عفوا عن حبيبتك يرتفع به هذا العذاب عنها .

وانقطع الصوتان هنيهة وإذا جانب القبر يتحرك فنهضت المرأتان وتمهقرتا حتى لصقت ظهورهما بجدار الطلل وعيناهما تلتقيان مرة وتنظران إلى القبر أخرى . وما لبث القبر أن انشق فانبثق منه رجلان فى ثياب بيض فعرفت كل منهما صاحبها وجعلت ترنو إليه ولكنهما وقفتا مبهوتتين صامتتين إلى أن تقدم الشاعر نحو حبيبته فبسط لها ذراعيه وهو يقول : « هلمى يا أسماء فقد عفوت عنك ! عزيز على أن يمس العذاب هذا الوجه الجميل ! » .

وانطلقت المرأة إلى حبيبها فضمهما عناق طويل !

وظلت إحسانْ واقفة مكانها تنظر إليهما مرة وإلى حبيبها أخرى ، وهو كذلك يتردد طرفه بينها وبين الحبيبين المتعانقين وعلى وجهه ابتسامة حزينة كأنه يريد أن يقول شيئا فلا يستطيع !

ثم خانها الصبر فقالت له بصوت مكلوم : « فؤاد ألا تعفو عنى أنت يا حبيبى أيضا كما فعل صاحبك ، وتريحنى من عذابى كما أراحها من عذابها ؟ .. فؤاد ، . ألا تكلمنى يا فؤاد ؟ لماذا تنظر واجما هكذا إلى ؟أجبنى !أجبنى ! »

— لقد عفوت عنك يا إحسان قبل أن تسألينى . وإنما يؤسفنى أن لا أستطيع الآن أنِ أريحك من عذابك .

— فيم يا فؤاد ؟ ألا تريحنى منه كما فعل صاحبك ؟

— إن حجاب الحياة الدنيا حياة الشر واللؤم والطمع ما يزال قائما



وتقهقرتا حتى لصقت ظهورهما بجدار الطلل
وعيناهما تلتقيان مرة وتنظران إلى القبر أخرى

يحول بينك وبيني . فاصبرى يا حبيبتى حتى يأذن الله فيزول هذا الحجاب وتكونى مثلى روحا صافية !

فصاحت إحسان قائلة : « لا .. لا أصبر .. لا أستطيع أن أصبر !

ودنت منه لتحتضنه فوجدت مكانه خاليا وإذ هو قد ظهر فى ركن آخر من أركان الخرابة قريبا من صاحبه الشاعر فسمعته يقول له : « كفاكما عناقا ! هذا حس أناس من الأحياء قادمين ! » فسرعان ما اختفى الشاعر وحبيبته عن عينيها وبقى حبيبها واقفا مكانه فنادته قائلة : « فؤاد ! ارحمنى يا فؤاد . لا تتركنى وحدى » .

— اصبرى يا حبيبتى حتى يرتفع الحجاب ، وداعا يا إحسان !

— كلا لا أستطيع أن أصبر ! لا تتركنى وحدى . خذنى معك يا فؤاد ! .. فؤاد ! .. فؤاد !

واندفعت نحوه بقوة عظيمة لتتعلق به فلم تجد شيئا يعترضها دون الجدار فصدم رأسها صدمة قوية ألقتها على الأرض وكان آخر ما وعت من صوت حبيبها قوله : « وداعا يا إحسان ! » ثم لم تع بعد ذلك شيئا .

ولما أفاقت شعرت بغرابة المكان الذى هى فيه ولكنها لم تدرك أنها مقيمة فى مستشفى المجاذيب ...

تذييـل

وفاء لذكرى متعدد المواهب ، الروائى ، المسرحى ، الشاعر ، الأديب ، الفنان على أحمد باكثير ..

وحفاظا على تراثه الغزير ذى القيمة من الاندثار والضياع ..

وخدمة للمكتبة العربية التى آثرها — آنفا — بفيض من تآليفه الرائعة فى مختلف فنون الأدب : الرواية ، والقصة ، والمسرحية ، والمسرحية الغنائية .

رأت « **مكتبة مصر — سعيد جوده السحار وشركاه** » التى كان لها شرف تقديم جل إنتاجه للقراء ابتداء من سنة ١٩٤٣ ، فأمتعت به أبناء الجيل الماضى ، أن تعيد طبع أعماله جميعا ونشرها فى ثوب جديد ، وفى قطع موحد ، حتى تتيح الفرصة لأبناء هذا الجيل والأجيال القادمة للتمتع — كذلك — بإنتاجه البارع الرفيع .

وتعتقد « **مكتبة مصر** » أن الأستاذ الراحل على أحمد باكثير ، برغم ما بلغه من مكانة مرموقة بين أدباء العربية ، لم ينل بعد كل ما يستحقه من التقدير الذى يؤهله لأن يكون فى القمة بين جميع الكتاب المعاصرين .

ذلك لأنه — وصديقه الراحل عبد الحميد جوده السحار — كانا هدفا لحملات ظالمة أحيانا ، ولإهمال متعمد أحيانا أخرى ، من بعض من كانوا يتحكمون فى النقد فى الصحف والمجلات فى تلك الأيام ، أيام غياب الحرية ، وتحكم الماركسيين فى أقدار الكتاب ؛ فقد وجهت إلى كل منهما تهمة أنه « يؤمن بالغيبيات » وأنه « غير تقدمى » كأنما الإيمان بالله والتمسك بالقيم الروحية يحطان من قدر الكاتب ويزريان بأدبه .

وإن هدف « **مكتبة مصر** » من إعادة نشر مؤلفاته ، وتقريبها من أيدى القراء ، هو أن تساعد على أن يوضع على أحمد باكثير فى المرتبة التى يستحقها بين كبار كتاب العربية ، وأن تعرف مؤلفاته الروائية والمسرحية طريقها إلى المكتبة العالمية .

وبالله التوفيق .

سعيد جوده السحار

رقم الإيداع : ٢٨٠٤ ـــ ٧٨
الترقيم الدولى : ٧ ـــ ٢٣٩ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه